

السلام العالمي والإسلام



سيد قطب

دار الشروق



السلام العالمى والإسلام

الطبعة الثالثة عشرة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
الطبعة الرابعة عشرة
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار الشروق ©
٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

سـيد قطـب

السلام العالمى والإسلام

دار الشروقـــ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال: ٥٥-٦٦).

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٣٩).

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٢٩).

العقيدة والحياة

عمر الفرد الفانى محدود، وأيامه على الأرض معدودة. وهو - بالقياس إلى هذا الكون الهائل الذى يعيش فيه - درة تائهة لا مستقر لها ولا قيمة، وعمره بالقياس إلى المدى الهائل من الأزل إلى الأبد ومضة برق أو غمضة عين . .

ولكن هذا الفرد الفانى. هذه الذرة التائهة. هذا اللّقىّ الضائع . . يملك فى لحظة أن يتصل بقوة الأزل والأبد. أن يمتد طولاً وعرضًا فى ذلك الكون الهائل. أن يرتبط به فى أعماقه وأمشاجه بوشائج من القربى لا تنفصم. أن يشعر بأنه من تلك القوى الهائلة وإليها. أنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة، وأن ينشئ أحداثًا ضخمة، وأن يؤثر فى كل شىء ويتأثر . . يملك أن يحس الوجود فى الماضى، والاستقرار فى الحاضر، والامتداد فى الآتى. يملك أن يستمد قوته من تلك القوة الكبرى التى لا تنضب ولا تنحسر ولا تضعف. وإنه لقادر إذن على مواجهة الحياة والأحداث والأشياء بمثل قوتها وأقوى، فما هو باللقى الضائع،

ولا بالفرد العاجز، وهو يستند إلى قوة الأزل والأبد، وإلى ما بينه وبينها من وشائج.

تلك وظيفة العقيدة الدينية، وذلك أثرها فى النفس والحياة. ذلك سر قوة العقيدة فى النفس، وسر قوة النفس بالعقيدة. سر تلك الخوارق التى صنعتها العقيدة فى الأرض وما تزال فى كل يوم تصنعها. الخوارق التى تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم، وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفانى المحدود، فى سبيل الحياة الكبرى التى لا تفنى، وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان، وقوى المال، وقوى الحديد والنار. فإذا هى كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة فى روح فرد مؤمن. وما هو الفرد الفانى المحدود الذى هزم تلك القوى جميعًا، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التى استمدت منها تلك الروح، والينبوع المتفجر الذى لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف.

وما تملك عقيدة أخرى - غير العقيدة الدينية - أن تصل الكائن الفانى بقوة الأزل والأبد، وأن تمنح الفرد الضعيف ذلك العون والسند؛ وأن تصغر فى عينه قوى الجاه والمال، وقوى المركز والسلطان، وقوى الحديد والنار، وأن تصْبره على الحرمان والأذى، وتقدره على الصبر والكفاح، وتدفعه إلى الموت الذى يخلق الحياة، والفناء الذى يمنح الخلود، والتضحية التى تورث النصر.

ومن ثم قيمتها الكبرى فى حياة الأفراد وحياة الجماعات سواء.

ومن ثم ذلك الإصرار الذى نصره على مواجهة مشكلاتنا

الاجتماعية ومشكلاتنا الإنسانية، ومشكلاتنا العالمية، بحلول تنبع من عقيدتنا الدينية.

إن هذه العقيدة قوة هائلة فى أيدينا، وقوة عميقة فى كياننا. قوة لا يتخلى عنها صاحبها فى زحمة الصراع إلا أن يكون به حمق أو سفه. ونحن نواجه صراعًا ضخمًا من حولنا. نواجه قوى هائلة متكتلة أكبر من طاقتنا المجردة. فإذا كانت عقيدتنا تسعفنا فى هذا الصراع الضخم بقوى حقيقية واقعة، وبحلول عملية واقعة كذلك. . فأى ضمير يملك أن يفرط فى تلك القوى، وأن يتخلى عن هذه الحلول، لمجرد أنها نابعة من تلك العقيدة؟!

إن بعض النظم الأخرى قد تقدم لنا بعض الحلول، لبعض المشكلات، فى بعض الأحيان. . ولكن قيمة العقيدة التى ندعو إليها ليست مجرد تقديم الحلول الوقتية للمشكلات الوقتية. إنما قيمتها أنها تقدم هذه الحلول، وتقدم معها القوة الضامنة لتحقيقها وحمايتها. قوة الدافع الفطرى العميق للعقيدة الدينية. ذلك الدافع الذى لا تملأ فراغه فى النفس الإنسانية فكرة فلسفية، ولا مذهب اجتماعى، ولا نظرية اقتصادية. ذلك أنه أعمق فى النفس البشرية من مستوى الفكر والمذاهب والنظريات. إنه جوعة فطرية لا يسدها إلا الإيمان. جوعة كجوعة الجسد إلى الطعام والشراب وسائر الضرورات.

وكم يخطئ الذين يخدعهم خمود هذا الدافع فترة أو تواريه، فيحسبونه قد مات، ويحسبون أنهم يستطيعون ملء فراغه فى

نفوس الأفراد والجماعات، بمذاهب فلسفية، أو نظريات اقتصادية، أو أفكار اجتماعية.

وسرعان ما يتبين لهم خطؤهم حينما تنتفض العقيدة الخامدة من حيث لا يحتسبون، فتأتى بالخوارق فى حياة الفرد، وفى حياة الجماعة.. هذه العقيدة التى كانت منذ لحظة خامدة هامدة، لا توحى بأمل، ولا ينبعث منها رجاء. وإن هى إلا فترة كمون يحسبها الجاهلون موتًا، ويدرك العارفون أنها طور من أطوار النفس البشرية، المليئة بالمسارب والمداخل، وبالمنعرجات والدروب!

تلك الخوارق التى تأتى بها العقيدة الدينية فى حياة الأفراد وفى حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى. إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد ثابتة. إن العقيدة الدينية تصور كلى شامل يربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخافية، ويثبِّت روحه بالثقة والطمأنينة، ويمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة، بقوة اليقين فى النصر، وقوة الثقة بالله. وهى - العقيدة - تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه، وتجمّع طاقاته وقواه كلها وتدفعها فى اتجاه. ومن هنا كذلك قوتها. قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد، وتوجيهها فى اتجاه واحد، تمضى إليه مستنيرة الهدف، فى قوة وفى ثقة وفى يقين.

والشخصية الإنسانية السوية وحدة متماسكة؛ فهى فى حاجة إلى عقيدة موحدة تصدر عنها فى كل اتجاه؛ وتستلهمها فى الشعور والسلوك، وتستهديها فى مواجهة الكون والحياة، وترجع إليها فى كل صغيرة وكبيرة.

وفضل هذه العقيدة فى حياة كل إنسان، أن تكون نقطة ارتكاز تتجمع إليها خيوط حياته ونشاطه، فلا تتمزق شخصيته وتتبعثر، ولا يدركها القلق والحيرة والاضطراب، وكلما قويت هذه النقطة واشتدت صلاتها بالخيوط المنبثة هنا وهنالك فى حياة الفرد ونشاطه كانت شخصيته أقوى، لأنها أكثر تجمعاً، وكانت خطواته أهدى لأنها أوحد طريقاً.

والعقيدة التى تتسع لكل ألوان النشاط الإنسانى هى عقيدة أفضل وأكمل من العقيدة التى تنظم بعض ألوان النشاط وتقصر عن بعضها. وكلما ثاب الفرد فى نشاطه كله إلى عقيدة واحدة كان ذلك أفضل له وأيسر من أن يرجع فى ألوان نشاطه إلى عقائد متفرقة. إن وحدة العقيدة حينئذ تحقق وحدة الشخصية، دون أن تجور على ألوان نشاطها المتعددة؛ ودون أن تضيق مجال النشاط أو تحده؛ ودون أن تمزقها طرائق قدداً، وتوقع بينها الاضطراب أبداً.

والعقيدة الروحية التى لا رأى لها فى السلوك الاجتماعى والعلاقات الاقتصادية والنظم العالمية.. كالنظرية الاجتماعية التى لا رأى لها فى الاعتقاد الروحى والخلق والسلوك.. كالفكرة الفنية التى لا علاقة لها بالسلوك أو الاعتقاد أو النظام.. كلها

محاولات ناقصة، لا تملك أن تنظم للإنسانية حياتها كاملة، ولا أن تحقق للشخصية الإنسانية التماسك والاتساق.

إن الفرد كالجماعة فى حاجة ملحة إلى عقيدة تتسع لكل ألوان النشاط الحية، وتهيمن على اتجاهاتها جميعًا، لتدفع بها كلها فى طريق الإنشاء والبناء والنماء. والفترات التى يهتدى فيها الفرد أو تهتدى فيها الجماعة إلى مثل هذه العقيدة، وتستجيب لها استجابة كاملة، وتحققها فى واقع الحياة.. هى الفترات التى تحقق فيها البشرية ما يبدو كأنه معجزات، وما يصعب تفسيره إلا على ضوء الوحدة التى تجمع الطاقة وتصونها عن التبدد والتمزق، وتدفع بها كلها فى اتجاه واحد، كالتيار الجارف، وكالسيل الجبار.

والعقيدة الإسلامية هى المثال الواحد الذى عرفته الإنسانية فى تاريخها الطويل فى هذا المجال. إنها العقيدة التى تتسع فتشمل كل نشاط الإنسان فى كل حقول الحياة، فلا تقتصر مهمتها على حقل دون حقل، ولا على اتجاه دون اتجاه.

إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. فما لقيصر، وقيصر ذاته، فى العقيدة الإسلامية كله لله. وما لقيصر حق ليس للفرد من رعاياه!

وإنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده. أو تتولى شعائره وتهمل شرائعه، أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه. وإنها لا تتولاه فردًا وتهمله جماعة، ولا تتولاه فى حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته ومجتمعه بسائر الدول والمجتمعات.

إنها الفكرة الكاملة الشاملة التى تمتد خيوطها فى الحياة الإنسانية امتداد الشرايين فى الكائن الحى وامتداد الأعصاب.

ونحن فى بلادنا هذه - وفى «العالم الإسلامى» كله - نواجه ألوانًا شتى من المشكلات والعوائق. نواجهها فى الداخل فى صورة مشكلات اجتماعية واقتصادية وأخلاقية، ونواجهها فى الخارج فى صورة مشكلات دولية عالمية، ولكننا نواجهها ونحن لا نجد أنفسنا. ولا نعرف رصيدنا من الطاقة، ولا ندرك لنا هدفًا ولا طريقًا. نواجهها ونحن أحوج ما نكون إلى عقيدة واحدة تجمع قوانا، وإلى راية واحدة نقف فى ظلها صفًا، وإلى فكرة واحدة نواجه بها الحياة ونواجه بها المشكلات، ونواجه بها تلك القوى التى تناصبنا العداء فى الداخل وفى الخارج سواء.

وقد كنا نتجنى على عقيدتنا الضخمة، ونظن بها عن جهالة أو عن غرض، أنها لا تسعفنا بالحلول العملية المحددة لمواجهة الحياة العصرية ومشكلاتها، وبخاصة فى الحقل الاجتماعى والحقل الدولى.

فأما الحقل الاجتماعى فقد صدرت فيه عدة مؤلفات تكشف عن الحلول العملية التى يملك الإسلام أن يواجه بها الحياة، وقد تداويت معظم الاعتراضات التى كان يبديها طلاب العدالة الاجتماعية، ورأوا أن الإسلام يملك أن يحقق عدالة أشمل وأكمل من كل ما تملك تحقيقه جميع المذاهب الاجتماعية الأخرى.

وأما الحقل الدولى، فربما كان العمل فيه قليلاً، ولم تشرح هذه الناحية بعد شرحًا كافيًا. وأمامنا اليوم مشكلة السلام العالمى التى تواجهها البشرية جميعًا، ونواجهها نحن ضمنًا. فهل للإسلام فيها رأى؟ ولها عنده حل؟

هذا الكتاب كله هو الاجابة التفصيلية عن هذا السؤال.

طبيعة السلام فى الإسلام

فكرة السلام فى الإسلام فكرة أصيلة عميقة، تتصل اتصالاً وثيقًا بطبيعته، وفكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان. هذه الفكرة التى ترجع إليها نظمه جميعًا؛ وتلتقى عندها تشريعاته وتوجيهاته، وتجتمع إليها شرائعه وشعائره، بشكل لا يخطر على بال الباحثين الدارسين أنفسهم لهذا الدين . . إلا أن يبلغوا بالبحث والدرس إلى الجذور العميقة البعيدة، ويتتبعوا امتدادها وتفرعها، فى يقظة وصبر وإحاطة . .

ونظرة الإسلام الكلية عن الكون والحياة والإنسان ليست موضوع بحثى اليوم فى هذا الكتاب[1]. كما أنها لم تكن موضوع بحثى فى كتاب «العدالة الاجتماعية فى الإسلام»؛ ولكن البحث فى أى حقل من حقول الإسلام لا غنى له عن الإلمام بتلك النظرة الكلية الكبيرة الشاملة. لشدة الترابط والتناسق بين أجزائها واتجاهاتها، وتوثق الصلات بينها وبين كل نظرة جزئية، أو مسألة

(١) هذه النظرة الكلية الشاملة تكفل بها كتاب: «خصائص التصور الإسلامى ومقوماته».

تفريعية . . فهذا الدين لا يعالج مشكلات الحياة الإنسانية أجزاء وتفاريق؛ ولا يقيم كلاً منها على أصل لا علاقة له بسائر الأصول. إنما هو يرجعها كلها إلى نقطة ارتكاز واحدة؛ ويديرها كلها حول محور جامع واحد، تشدها إلى هذا المحور خيوط ظاهرة أو دقيقة، ولكنها قائمة على كل حال، تؤلف من مسائل هذا الدين وقضاياه وحدة كلية جامعة، مردها إلى نظريته الكلية للكون والحياة والإنسان.

وطبيعة السلام في الإسلام على وجه خاص لا غنى لها عن الإلمام بنظرة الإسلام الكلية تلك، فمنها تنبع نبعًا مباشرًا، وإليها ترجع رجوعًا مباشرًا. فلنحاول أن نلم بها هنا في سطور قليلة، قبل الحديث عن «طبيعة السلام في الإسلام» كما ألممنا بها هناك قبل الحديث عن «طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام».

الإسلام دين الوحدة الكبرى في هذا الكون الكبير. . الوحدة بين جزئياته جميعًا: من الذرة المفردة إلى أرقى طبقات الحياة المركبة. والوحدة بين مفرداته جميعًا. من الجماد الساكن إلى النبات النامي، إلى الحيوان المتحرك إلى الإنسان الناطق. والوحدة بين نشاطه جميعًا: من دورة الأفلاك والكواكب إلى جولة الأفكار والأرواح. والوحدة بين اتجاهاته جميعًا: من استجابة الأفلاك للناموس إلى استجابة الأرواح للمعرفة والهداية. والوحدة بين طاقاته جميعًا: من جوعة الجسد للضرورات، إلى هتاف الروح بالأشواق. . ثم الوحدة بين الأحياء فيه جميعًا، وبين الأجناس

فيه جميعًا، وبين الأجيال فيه جميعًا، وبين بدنه ومنتهاه، وبين أرضه وسماه، وبين آخرته ودنياه. .

يبدأ الخطوة الأولى بتوحيد الإله، الذات التى تصدر عنها الحياة، وإليها وحدها الاتجاه:

﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص ١-٤). . وبذلك يبت كل أسباب الفرقة والخلاف فى مصدر الكون الأول. ويرفع أسباب الفساد والصدام فى صميم الناموس. فوحدة الإله الخالق تنفى عن ناموس الكون تعدد التصميم والنظام. وتنفى عنه تبعًا لهذا أسباب التعارض والاصطدام. وذلك مصداق ما يقول الله تعالى فى القرآن: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٢٢). . ومصداق ما يقول سبحانه: ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ (سورة المؤمنون الآية: ٩١).

عن إرادة هذا الإله الواحد، يصدر الكون بطريق واحد: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (سورة يس الآية: ٨٢). . فلا وساطة بين الإرادة الموحدة والكون المخلوق. ولا تعدد فى الطريقة التى يصدر بها هذا الكون كله عن الخالق الواحد. إنها مجرد الإرادة التى يعبر عنها القرآن بالكلمة: ﴿ **كُن** ﴾. وتوجه هذه الإرادة كاف وحده لصدور الكون عنها:

﴿كُن فيكُونُ﴾ وبذلك ينفي عن صدور الكون كل وساطة أو ثنائية أو تعدد، فينفي كل ظل للتصادم أو التعويق أو التفاوت منذ اللحظة الأولى، ويقرر انسياب الكون في طريق الوجود بيسر وبساطة وتناسق. هذا التناسق الملحوظ في الظاهر، الكامن كذلك في نظام الكون والحياة كلها والأحياء: ﴿الَّذي خلق سبْع سمٰوات طباقًا مَا ترىٰ في خلْق الرَّحْمٰن من تفاوُت فارْجع الْبصر هلْ ترىٰ من فُطُور (٣) ثُمَّ ارْجع الْبصر كرَّتيْن ينقلبْ إليك الْبصرُ خاسئًا وهُو حسيرٌ﴾ (سورة تبارك الآيتان: ٣، ٤).

وفي يد هذا الإله الواحد ملك كل شيء، وإليه يتوجه الكون كله، جملة وأفرادًا، في الدنيا والآخرة، في العمل والصلاة، في المحيا والممات. وإليه مرده كما كان عنه مورده: ﴿تبارك الَّذي بيده الْمُلْكُ وهُو علىٰ كُلِّ شيْءٍ قديرٌ (١) الَّذي خلق الْموْت والْحياة ليبْلُوكُمْ أيُّكُمْ أحْسنُ عملاً﴾ (سورة تبارك الآيتان: ١، ٢). . ﴿تُسبِّحُ لهُ السَّمٰواتُ السَّبْعُ والأرْضُ ومن فيهنَّ وإن مّن شيْءٍ إلاَّ يُسبِّحُ بحمْده ولٰكن لاَّ تفْقهُون تسْبيحهُمْ﴾ (سورة الإسراء الآية: ٤٤). . ﴿وما خلقْتُ الْجنَّ والإنس إلاَّ ليعْبُدُون (٥٦) ما أُريدُ منْهُم مّن رّزْق وما أُريدُ أن يُطْعمُون﴾ (سورة الذاريات: ٥٦، ٥٧). . وبذلك ينفي عن الكون والحياة والأحياء فكرة ضلال الغاية، أو تصادم الغرض؛ ويقيمها على النهج الموحد الواضح المتناسق، ويسلكها في الطريق الواحد المؤدي إلى الغاية. غاية الجميع. ووجهة الجميع.

هذا الكون المتفرق الأجزاء، المتعدد الأشكال، المتنوع الأحجام . . يرجع إلى أصل واحد، وإلى طبيعة واحدة. وقد كان في أصله مجتمعًا ثم تفتقت أجزاؤه، وتكونت أبعاده: ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما** ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٣٠). ويخضع كله لناموس واحد، ينسق حركاته، ويقيه التصادم والتهدم، ويهيمن على أجرامه وأفلاكه، وينظم سيرها ومجراها: ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم (٣٨) والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم (٣٩) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾ (سورة يس الآيات: ٣٨-٤٠). . وذلك ينفي عن أجزاء الكون المتفرقة صفة التقاطع والتناثر؛ ويثبت لها صفة التوحد والتناسق، في طبيعة التكوين، وفي صميم الناموس، وفي نظام الحركة سواء.

والحياة في هذا الكون مقصودة وليست فلتة عابرة. وقد روعي في تصميم الكون وفي ناموسه أن يسمح بظهور الحياة، وأن يوافيها بحاجاتها وحاجات الأحياء، وأن يحرسها من التحطيم والهلاك والفناء.

فهذه الأرض ﴿ **وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها** ﴾ (سورة فصلت الآية: ١٠). . ﴿ **وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم** ﴾ (سورة النحل الآية: ١٥). . ﴿ **والأرض وضعها للأنام (١٠) فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام (١١) والحب ذو**

العصف والريحان ﴾ (سورة الرحمن الآيات: ١٠ - ١٢). . ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ (سورة تبارك الآية: ١٥). . وهذه السماء قد روعى فى تصميمها مقتضيات الحياة: ﴿ **وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا** ﴾ (سورة فصلت الآية: ١٢). . ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه** ﴾ (سورة الحج الآية: ٦٥). . وهذه الرياح بين السماء والأرض فى خدمة الحياة والأحياء: ﴿ **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون** ﴾ (سورة الروم الآية: ٤٨). . وبذلك يقرر التعاون والتناسق بين طبيعة الكون وطبيعة الحياة فى عمومها، ويبعد فكرة التصادم والتعارض. كما يقرر مبدأ النظام المقصود فى بناء الكون، وينفى فكرة المصادفة العمياء التى لا تقوم على نظام.

والحياة النابضة فى هذه الأرض خرجت من أصل واحد، وتحتوى كلها على هذا العنصر الواحد. عنصر الماء الذى هو الأصل للأحياء: ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٣٠). . والأحياء كلها - بل الأشياء - تشترك فى خاصية واحدة. خاصية التزاوج: ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ (سورة يس الآية: ٣٦). ﴿ **فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا** ﴾ (سورة الشورى الآية: ١١). ﴿ **ومن كل شيء خلقنا**

زوجين لعلكم تذكرون ﴾ (سورة الذاريات الآية : ٤٩) . . وتشترك فى تنظيم جماعى واحد : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ (سورة الأنعام الآية : ٣٨) . . وبذلك يقوم النسب بين الأحياء فى الأرض جميعًا، ويصبح الأحياء أسرة واحدة، نبتت من أصل واحد، وتقوم القرابة بين الأحياء والأشياء فى هذه الأرض جميعًا.

والإنسان، أرقى نماذج الحياة، مصوغ كيانه من مادة الكون الأولى. ونسبه إلى مادة هذا الكون عريق : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ (سورة المؤمنون الآية : ١٢) . . وأفراد هذا الإنسان بعد ذلك موحدون فى أصلهم الواحد، متساوون فى نسبتهم إليه : «أنتم بنو آدم وآدم من تراب»[١] . . وكل أفراد هذا الجنس خلقوا من نفس واحدة، ومن هذه النفس الواحدة خلق زوجها، ومنهما معًا صدر الأفراد جميعًا : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ (سورة النساء الآية : ١) . . وكلهم خلقوا ليتعارفوا ويتآلفوا لا ليتناحروا ويتدابروا : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ (سورة الحجرات الآية : ١٣) . . وبذلك يزيل كل أسباب النزاع العنصرية والجنسية، بتقرير وحدة الإنسانية فى طبيعتها وفى أصلها وفى نشأتها، وبتقرير الغاية من تفرق

---

(١) مسلم وأبو داود.

الأجناس والقبائل، والنص على أنها التعارف والتآلف، لا التناحر والتدابر.

إلى هذه البشرية الواحدة أرسل الله الواحد رسالة واحدة، المؤمنون بها أمة واحدة: ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ (سورة الشورى الآية: ١٣). . ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٣٦). ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم (٥١) وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾ (سورة المؤمنون الآيتان: ٥١، ٥٢). . وبذلك يزيل كل أسباب النزاع الدينية بين المؤمنين بدين الله الحق بتقريره أن الدين كله من عند الله، وأنه دين واحد يدعو إلى الإسلام لله الواحد بلا شريك، وإلى الدينونة لهذا الإله الواحد دينونة مطلقة فى أمور الدنيا وأمور الآخرة بلا تفريق.

ثم يسير الإسلام أشواطًا أخرى فى تقرير فكرة الوحدة الكبرى، ويتسلل بها إلى كوامن النفس ونزعات الجسد وسبحات الروح، ويدخل بها إلى كل زاوية فى حياة الإنسان، إلى كل وجهة من وجهات الحياة. ولكن هذه مباحث لا حاجة بنا هنا لتقصيها. فحسبنا هذا القدر فى التمهيد لبيان «طبيعة السلام فى الإسلام».

من هذا التناسق فى طبيعة الكون، وفى ناموس الحياة، وفى أصل الإنسان. . تستمد طبيعة السلام فى الإسلام، فتستند إلى أصل أصيل عميق، ويصبح السلام هو القاعدة الدائمة، والحرب هى الاستثناء الذى يقتضيه الخروج عن هذا التناسق الممثل فى دين الله الواحد، بالبغى والظلم، أو بالفساد والاحتلال. وأظلم الظلم الشرك بالله. وأفسد الفساد تعبيد العباد لغير الله، فترده الحرب الموقوتة إلى التناسق الدائم والصلاح الواجب: ﴿ **حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٣٩).

ذلك أن الإسلام ينفى منذ الخطوة الأولى معظم الأسباب التى تثير فى الأرض الحروب، ويستبعد ألوانًا من الحرب لا يقر بواعثها وأهدافها.

يستبعد الحروب التى تثيرها القومية العنصرية، فلا مكان فيه للقومية العنصرية، وهو يقرر أن الناس كلهم من أصل واحد، وأنهم خلقوا كلهم من نفس واحدة، وأنهم جعلوا شعوبًا وقبائل ليتعارفوا.

ويستبعد الحروب التى تثيرها المطامع والمنافع: حروب الاستعمار والاستغلال، والبحث عن الأسواق والخامات، واسترقاق المرافق والرجال. فلا مكان فيه لهذه الحروب، وهو يَعُدُّ البشرية كلها وحدة متعاونة، بل يعد الحياة كلها أسرة قريبة النسب، بل يعد الكون كله وحدة غير متنازعة الأهداف. وهو يأمر بالتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وهو يحرم السلب والنهب والغصب، وهو يعد البشرية كلها بالعدل

المطلق، لا فارق بين جنس أو لون أو عقيدة في الاستمتاع الكامل بعدل الله في ظل شريعة الله، في النظام الذي قرره الله.

كما يستبعد الحروب التي يثيرها حب الأمجاد الزائفة للملوك والأبطال. أو حب المغانم الشخصية والأسلاب. جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى. فمن في سبيل الله؟ قال ـ ﷺ: «من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

هنا تتبين تلك الحرب الوحيدة المشروعة التي يقرها الإسلام: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». فماذا هي كلمة الله التي يقاتل من يقاتل في سبيلها فيكون في سبيل الله؟

إن كلمة الله هي التعبير عن إرادته، وإرادته الظاهرة لنا نحن البشر، هي التي يقررها هو ـ سبحانه ـ ويحددها كلامه: ﴿**حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾ (البقرة: ١٩٣). ولا يكون الدين كله لله، إلا عند إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والعبادة والطاعة والدينونة. فلا يعبد الناس إلا إلهًا واحدًا، ولا يدينون في نظام حياتهم ومعاشهم إلا لما يشرعه ويأذن به هذا الإله الواحد، ولا يستمدون مناهج حياتهم الدنيوية ـ كالأخروية سواء ـ إلا من منهج الله القويم. وبهذا وحده يكون الدين كله لله ـ بمعنى الدينونة لله وحده في كل شأن من شؤون الحياة ـ وبذلك يكون في الأرض

---

(١) أخرجه الخمسة.

رب واحد، لا أرباب متفرقة. إذ كل من يدعى لنفسه أنه صاحب الحق فى التشريع للناس من عند نفسه، إنما يدعى - ولو لم يذكر ذلك علانية ونصًا - أنه فى هذه الأرض إله مع الله - أو من دون الله - فلا يكون هناك إله واحد، ولا يكون الدين كله لله . .

فهذه هى الحرب التى يقرها الإسلام. لتقرير ألوهية الله فى الأرض ونفى غيرها من الألوهيات المدعاة، ودفع الذين يدعون الألوهية - سواء بالقول أو بالفعل - وإثبات سلطان الله فى الأرض. حتى يكون الدين كله لله. وحتى لا يتخذ الناس بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله!

ولقد جاء الإسلام إلى هذه الإنسانية كلها، فمن تحقيق كلمة الله أن يصل هذا الخير الذى جاء الإسلام به إلى الناس جميعًا، وألا يحول بينهم وبينه حائل. فمن وقف فى طريق هذا الخير أن يصل إلى الناس كافة، وحال بينهم وبينه بالقوة، فهو إذن معتد على كلمة الله، وإزالته من طريق الدعوة هى إذن تحقيق لكلمة الله، لا لفرض الإسلام فرضًا على الناس، ولكن لمنحهم حرية المعرفة وخيرة الهداية. فالإسلام لا يكره أحدًا على اعتناقه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٥٦) ولكنه يكره الذين يقفون بالقوة فى طريقه، ويفتنون الناس عنه، أو يمنعونهم ابتداء من تبين الرشد من الغى، عن طريق السيطرة عليهم وحرمانهم حق الاختيار. . وهذه هى الحرب التى يقرها الإسلام ويحرض عليها تحريضًا، ويدعو رسوله أن يحرض عليها المؤمنين ويحب الذين يخوضونها، ويعدهم أعلى درجات

الرضوان: ﴿ يأيها النبيُّ حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٦٥) ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم اللهُ ورسولُه ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ (سورة التوبة الآية: ٢٩).. ﴿ إنَّ الله يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ ﴾ (سورة الصف الآية: ٤).

ولقد جاء الإسلام ليحقق العدالة فى الأرض قاطبة، ويقيم القسط بين البشر عامة. العدالة بكل أنواعها: العدالة الاجتماعية، والعدالة القانونية، والعدالة الدولية، فمن بغى وظلم وجانب العدل فقد خالف عن كلمة الله، وعلى المسلمين أن يقاتلوا لإعلاء كلمة الله، وأن يردوا الشاردين عنها إليها حتى لو امتشقوا الحسام فى وجوه المسلمين الباغين. فالعدل المطلق، ورد البغى والعدوان، هو كلمة الله التي يجب أن تعلو فى كل حال وفى كل مكان: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرىٰ فقاتلوا التي تبغي حتىٰ تفيء إلىٰ أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحبُّ المقسطين ﴾ (سورة الحجرات الآية: ٩).

وإذا كان الإسلام يدعو المسلمين أن يقاتلوا المسلمين البغاة لرد

البغي وتحقيق القسط، فهو يدعوهم إلى دفع الظلم كافة.. إلى دفع الظلم عن أنفسهم وإلى دفعه عن كل مظلوم لا يملك له دفعاً، على ألا يعتدوا هم ولا يبغوا في أثناء رد العدوان: ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٩٠) ﴿ **وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا** ﴾ (سورة النساء الآية: ٧٥).

لهذه الأغراض العليا وحدها يحمل الإسلام السيف، ويعظم الإسلام الجهاد، ويعد المجاهدين أعلى درجات الشهادة والجزاء: ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾ (سورة التوبة الآية: ١١١).. ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون (١٦٩) فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٧٠) يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ (سورة آل عمران الآيات: ١٦٩ ـ ١٧١).

ولهذه الأغراض العليا وحدها يدعوهم أن يعدوا العدة، ويهيئوا القوة، وألا يهنوا ويدعوا إلى السلم الرخيصة: ﴿ **وأعدوا**

لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ (سورة الأنفال الآية: ٦٠)..

﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾ (سورة محمد الآية: ٣٥).

على أن إعداد العدة وتوفير القوة غرض مقصود لذاته، وضرورة من ضرورات الحركة الإسلامية.. إن الإسلام هو آخر رسالة الله إلى البشر، وهو جماع العقيدة التى أرادها الله للناس، وهو «الدين» الذى جاء بقواعده الأساسية كل رسول: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (سورة آل عمران الآية: ١٩).. ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ (سورة آل عمران الآية: ٨٥). فكل نبى جاء ليأمر الناس بعبادة الله الواحد دون شريك، والإسلام لله الواحد بلا تردد: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٢٥).

ثم جاء محمد بهذا الدين ﴿مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ (سورة المائدة الآية: ٤٨).

هذه الرسالة الأخيرة إذن هى الوصية على روح البشرية كلها وعلى حياتها جميعاً، ولابد للوصى من قوة تقرر وصايته، لا عن طريق الإرغام والإرهاب، ولكن عن طريق الاحترام والهيبة. والناس هم الناس. لابد أن يزيغوا إذا لم يجدوا الرادع القوى الذى يحفظ الحدود ويحميها. فلابد أن تكون هنالك قوة يحسبون

حسابها. ولو لم تمد إليهم يدها. والهدى الأعزل مهمل. والخير الضعيف منبوذ.

فإعداد القوة واجب. واجب ليكون في هذه الأرض سلطة عليا ترد الشاردين عن الحق إليه، وتقف الطغاة عن البغي والعدوان، وتحفظ على الآمنين أمنهم وسلامتهم، وتعز كلمة الله عن الاستخفاف والهوان، وتقر سلطان الله في الأرض، وتفرده ـ سبحانه ـ بالسلطان.

فأما حين تتحقق الحرية المنيعة، فلا يصد الناس بالقوة عن كلمة الله، ولا يفتنون عن دينهم الذي ارتضاه لهم الله نظامًا شاملاً للحياة. وحين لا تقوم في الأرض سلطة تعبّد الناس في الأرض لأرباب من دون الله. وحين تتحقق العدالة الخيرة، فلا يبغي بعض الناس على بعض، ولا يستذل بعضهم رقاب بعض. وحين يتحقق الأمن للضعفاء الذين لا يملكون عن أنفسهم دفاعًا، ويكف الباغي عن بغيه ويجنح إلى السلم والمهادنة. حين يتم هذا فالإسلام المالك للقوة المستعد للطوارئ يضع السيف جانبًا ويدعو إلى السلم فورًا: ﴿ وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكَّل على الله ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٦١). ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدينُ كلُّه لله ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٣٩).

ذلك إجمال فكرة السلام في الإسلام: السلم قاعدة والحرب ضرورة. ضرورة لتقرير سلطان الله في الأرض ليتحرر الناس من العبودية لغير الله. وضرورة لدفع البغي من البغاة وتحقيق كلمة الله

وعدل الله . . ضرورة لتحقيق خير البشرية، لا خير أمة ولا خير جنس ولا خير فرد. ضرورة لتحقيق المثل الإنسانية العليا التى جعلها الله غاية للحياة الدنيا . . ضرورة لتأمين الناس من الضغط، وتأمينهم من الخوف، وتأمينهم من الظلم، وتأمينهم من الضر . . ضرورة لتحقيق العدل المطلق فى الأرض. فتصبح إذن كلمة الله هى العليا.

وواقع الإسلام التاريخى يثبت هذه المبادئ النظرية. فلقد جاء محمد ﷺ مأمورًا أن يبلغ الرسالة للناس كافة: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ (سورة سبأ الآية: ٢٨). . وأن يعلن دعوة الله خالصة، بلا منٍّ وبلا أجر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ (سورة المدثر الآيات: ١ ـ ٧). وأن يسلك بالدعوة طريق الجدل بالحسنى، والإقناع بالحجة. فى غير قسوة ولا غلظة: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (سورة النحل الآية: ١٢٥). . ﴿ **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾ (سورة ق الآية: ٤٥).

وهكذا سارت الدعوة على هذا الأساس، لا يبغى محمد من الناس إلا أن يستمعوا إليه. فإن صغت قلوبهم إلى الإيمان فليؤمنوا، وإن قست قلوبهم وران عليهم الضلال فأمرهم إلى الله. متى تحقق لهم أن يتحرروا من سلطان الطواغيت ويواجهوا

عقيدة الإسلام أحرارًا فى الاختيار، بغير ضغط من سلطة قاهرة تصدهم عن هدى الله وتقف لهم بالقوة دون الاستجابة للهداة.

ولكن الجاهلين لم يسالموا محمداً، ولم يدعوا للدعوة السلمية طريقها، ولا لمعتنقيها المقتنعين بها حريتهم، فآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم، وقاتلوهم حيثما وجدوهم، وحالوا بين الدعوة وبين الأسماع بالقوة المادية المجردة من كل إقناع.

وعندئذ حمل الإسلام السيف ليذود عن مبدإ أساسى من مبادئه: مبدإ حرية الدعوة وحرية العقيدة: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (سورة الحج: ٣٩، ٤٠).

ولقد هادن النبى ﷺ - فى أول العهد بالمدينة - كل من طلب الهدنة، وكل من اتخذ عنده عهداً، فلم يقاتل منهم إلا الذين نقضوا عهودهم، وتآمروا على المسلمين مع أعدائهم. وفى ذلك كانت غزوة بنى قريظة بعد ما ألبوا الأحزاب على المسلمين فى غزوة الخندق، كما كانت قبلها غزوة بنى النضير وغزوة بنى قينقاع حينما خاسوا بعهودهم مع رسول الله ﷺ، تنفيذاً لأمر الله فى ناقضى العهد وناكثيه: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ

لا يُؤْمِنُون (٥٥) الَّذِين عاهدتَ منهُم ثُمَّ ينقضُون عهدهُمْ في كُلِّ مرَّةٍ وهُمْ لا يتَّقُون (٥٦) فإمَّا تثْقفنَّهُمْ في الْحرْب فشرِّدْ بهِم منْ خلْفهُمْ لعلَّهُمْ يذَّكَّرُون ﴾ (سورة الأنفال الآيات: ٥٥ ـ ٥٧).

ولقد قاتل رسول الله ـ ﷺ ـ قريشًا؛ التى سبق لها الاعتداء على سلطان الله بالشرك. ثم الاعتداء على المسلمين الذين خلعوا عنهم ربقة الشرك. وكان القتال دفاعًا عن ربوبية الله سبحانه، ثم دفاعًا عن عباده..

ولقد كان الشرط الرابع من هدنة الحديبية التى عقدها رسول الله ﷺ مع قريش: «أن من دخل فى عهد قريش دخل فيه، ومن دخل فى عهد محمد دخل فيه» وبناء على ذلك تحالف بنو بكر مع قريش، وتحالفت خزاعة مع محمد ﷺ. وقد كانت قبيلة خزاعة حليفة فى الجاهلية لعبد المطلب جَد محمد ﷺ، فأرادت أن تجدد ميثاقها معه كما كان مع جده. وكان ميثاقها مع عبد المطلب يتضمن هذه الفقرة: «إن عبد المطلب وولده ورجال خزاعة متضافرون يتعاونون، وعلى عبد المطلب النصرة لهم، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده على جميع العرب فى شرق وغرب وحَزن وسهل».

وقد أقر النبى هذه المعاهدة، ولكنه زاد فيها شرطين يحددان فيم يكون التعاون والنصر، كى تتفق مع مبادئ الإسلام الأساسية. وكان هذان الشرطان: «ألا يعين خزاعة إذا كانوا ظالمين» و«أن ينصر خزاعة إذا ظلموا».

وكانت خزاعة حتى ذلك الوقت لم تسلم. ولكن محمداً باسم الإسلام تعهد لها بالنصر من الظلم، لأن الإسلام يكرهه في جميع صوره وأشكاله، ويدفعه سواء وقع على أهله أو المعتنقين دينًا غير دينه.

ولقد قال النبى - ﷺ - عن حلف الفضول الذى كان معقودًا فى الجاهلية: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أنّ لى به حُمْرَ النَّعَم، لو أدعى به فى الإسلام لأجبت»[1].

فماذا كان فى هذا الحلف الذى لا يحب محمد أن تكون له النوق الحسان وأن ينقضه؟ إنه الحلف الذى اجتمع عليه بنو هاشم والمطلب، وأسد بن عبد العُزَّى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مُرَّة، وتحالفوا فيه على «رد المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم». وكان النبى ﷺ وقتها فى الخامسة والعشرين قبل النبوّة.

ولم يكن يومًا من أغراض الحرب فى الإسلام إكراه الناس على اعتناقه، لا فى مبادئه النظرية ولا فى واقعه التاريخى. اللهم إلا فلتات عارضة وقعت خطأ ممن لم يفهموا حقيقة الدعوة الإسلامية، ولا تحسب على الدين لأنها ليست من هذا الدين، وما انتشر الإسلام بالسيف كما يصمه الجاهلون به، والمعادون له. وما كانت الحرب فيه لإكراه الناس على اعتناقه. إنما كانت الحرب لإزالة الطواغيت التى تحول بين الناس وبين سماع الدعوة، أو تفتنهم عن دينهم حين يختارونه عن اقتناع، كما كانت لإزالة الطواغيت التى تدعى حق الألوهية وتغتصب خصائصها وتتعبد

---

(١) رواه ابن هشام فى السيرة من حديث ابن إسحاق.

الناس من دون الله، والله يريد أن يكون للناس إله واحـد، وأن يكون الدين كله لله . .

يقول «سير ت. و. أرنولد» فى كتابه: «الدعوة إلى الإسلام» ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه فى ص ٥١:

«ومن هذه الأمثلة التى قدمناها آنفًا عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين فى القرن الأول من الهجرة، واستمر فى الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح».

ويقول أيضًا قبل ذلك فى صفحة ٤٨:

«ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التى قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسمًا فى تحويل الناس إلى الإسلام، فمحمد نفسه قد عقد حلفًا مع بعض القبائل المسيحية، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم. وقد وجد حلف كهذا بين أتباع النبى وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية دينهم القديم»[1] . .

---

(١) لابد من التنبيه إلى أن هذا الحلف كان فى فترة مرحلية من مراحل الحركة الإسلامية. وإن إطلاق القول هكذا من المستشرق (ت. و. أرنولد) وراءه خبيء يحسن التنبه له! وللاستزادة من معرفة هذه الحقيقة براجع فصل: «الجهاد فى سبيل الله» فى كتاب: «معالم فى الطريق».

وفى هذا وفى أمثاله ما يدفع تلك الدعوى، وما يجزم بأن حروب الإسلام لم تكن لإكراه الناس على الدين، ولا للاستعمار والاستغلال والإذلال. إنما كانت إعلاء لكلمة الله فى الأرض بجعل السلطة العليا فيها للذين يفردون لله ـ سبحانه ـ بالألوهية. وإيصال الخير الذى جاء به الإسلام للناس كافة عن طريق الرضا والاقناع. وبتحقيق العدالة والأمن والسلام. فى ظل سلطان الله المتفرد ـ سبحانه ـ بالسلطان. وفى ظل هذا السلطان. الذى يقرر للناس منهج حياة الناس فيه أحرار، يختار كل فرد عقيدته بلا ضغط ولا إكراه..

ولا يتم الحديث عن طبيعة السلام فى الإسلام حتى نشير إلى المجال الذى يعمل فيه الإسلام. إن الإسلام فى طبيعته الكلية فى النظرة إلى الحياة، لا يجزِّئ السلام، ولا ينشده فى حقل مفرد من حقول الحياة. إنما يجعل السلام كله وحدة، ويحاول تحقيقه فى كل حقل، ويربط بينه وبين النظرة الكلية للكون والحياة والإنسان. وبذلك تصبح كلمة «السلام» التى يعنيها الإسلام ذات دلالة أعمق وأشمل من معناه الذى تتعارف عليه الدول فى هذه الأيام. فهو السلام الذى يحقق كلمة الله فى الأرض من الحرية والعدل والأمن لجميع الناس، لا مجرد الكف عن الحرب بأى ثمن، مهما يقع فى الأرض من ظلم ومن فساد! ومهما يكن فى الأرض من طاغوت واعتداء على سلطان الله وألوهية الله!

وحين يحاول الإسلام إقرار السلام الشامل وفق مبادئه العليا فى تحقيق كلمة الله، لا يبدأ فى مجال السلام الدولى، فتلك نهاية

المرحلة لا بدايتها. وما السلام الدولى إلا الحلقة الأخيرة التى تسبقها حلقات.

إن الإسلام يبدأ محاولة السلام أولاً فى ضمير الفرد، ثم فى محيط الأسرة، ثم فى وسط الجماعة. وأخيراً يحاول فى الميدان الدولى بين الأمم والشعوب.

إنه ينشد السلام فى علاقة الفرد بربه، وفى علاقة الفرد بنفسه، وفى علاقة الفرد بالجماعة. ثم ينشده فى علاقة الطائفة بالطوائف، وعلاقة الأفراد بالحكومات. ثم ينشده فى علاقة الدولة بالدول بعد تلك الخطوات.

وإنه ليسير فى تحقيق هذه الغاية الأخيرة فى طريق طويل، يعبر فيه من سلام الضمير، إلى سلام البيت، إلى سلام المجتمع، إلى سلام العالم فى نهاية المطاف. فَلْنَقِفْ فيما يلى خطوات الإسلام فى سبيل السلام.

ســلام الضميــر

لا سلام لعالم ضمير الفرد فيه لا يستمتع بالسلام . . تلك هى نظرة الإسلام . . فإذا شاء أن يقيم السلام العالمى على أساس ركين، فهو يبدؤه هنالك فى قرارة الضمير . .

وللفرد فى النظام الإسلامى قيمة أساسية، فهو اللبنة الأولى فى بناء الجماعة، وفى ضميره تنبت البذرة الأولى للعقيدة، وفى سلوكه تستحيل العقيدة المكنونة حقيقة ظاهرة، بل يستحيل هو ذاته ترجمة حية لهذه العقيدة.

وفى ضمير الفرد يغرس الإسلام بذرة السلام. السلام الإيجابى الذى يرفع الحياة ويرقيها، لا السلام السلبى الذى يرضى بكل شىء، ويدع المبادئ العليا تداس فى سبيل العافية والسلامة. السلام النابع من التناسق والتوافق، المؤلف من الطلاقة والنظام! الناشئ من إطلاق القوى والطاقات الصالحة البانية، ومن تهذيب النزوات والنزعات، لا من الكبت والتنويم والخمود. السلام الذى يعترف للفرد بوجوده وبنوازعه وبأشواقه، ويعترف فى الوقت ذاته

بالجماعة ومصالحها وأهدافها، وبالإنسانية وحاجاتها وأشواقها، وبالدين والخلق والمثل.. كلها فى توافق واتساق.

المنطق والعقيدة

يعقد الإسلام السلام بين المنطق الإنسانى والعقيدة الدينية منذ الخطوة الأولى. فالإسلام عقيدة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض.

الله.. ليس كمثله شيء. وهو خالق كل شيء. ومحمد ﷺ بشر كسائر البشر أوحى إليه أن يهدى الناس إلى عبادة هذا الإله الواحد بلا شريك، والدينونة له وحده فى أمور الدنيا والآخرة بلا منازع. ليس الله واحداً فى ثلاثة ولا ثلاثة فى واحد، وليس والداً ولا مولوداً.. ومحمد ليس بشراً، وإلهًا، وليس رسولاً فى الأرض وربًا فى السماء!

فى الإسلام لا شيء من الألغاز والمعميات، التى تهرب من الضوء وتدع المنطق الإنسانى فى حيرة، والضمير الفردى فى قلق. لأنه إما أن يؤمن فيهمل منطقه، وإما أن يعتصم بالمنطق فيقوده إلى الكفر والإلحاد؛ وإما أن يبقى متأرجحًا بينهما، ممزقًا مضطربًا لا يقر على قرار.

وفى الإسلام ليس من العسير تصور بشر يتصل بالقوة الكبرى. ففى روح الإنسان تلك الطاقة التى تصله بتلك القوة، وأفراد عاديون يحسون فى تجاربهم العادية تلك الصلة، ولكن

أرواحهم لا تثبت لهذا الاتصال إلا لحظات خاطفات. أما أرواح كأرواح محمد وموسى وعيسى ونوح وإبراهيم - عليهم السلام - فلا يتعذر تصور استمدادها من هذه القوة وتلقيها.

وإذا قيست قضية تصور الوحى على هذا النحو بقضية تصور اللاهوتية والناسوتية فى أقنوم، وتصور ثلاثة فى واحد، وتصور نزول الإله إلى الأرض فى صورة ابنه ليعانى الآلام تخليصًا للبشرية من خطيئة آدم.. إلى آخر أوهام الكنيسة والمجامع التى دستها فى النصرانية.. إذا قيست تلك القضية إلى هذه القضايا فإنها تبدو يسيرة يسيرة!

لقد دخلت هذه الأساطير إلى النصرانية، وهى منها بريئة. فالنصرانية فى منابعها الأولى صورة من الدين الواحد الذى أرسل الله به رسله جميعًا. دين التوحيد الذى لا يجعل لله شريكًا، والذى يطلق البشر من العبودية لشريك. ولكن الرومان الذين دخلوا فى المسيحية ومعهم آلهتهم المتعددة لم يطيقوا أن يخلصوا سريرتهم لهذا التوحيد فى النصرانية، ومن ثم بدأت تلك الأساطير؛ وشيئًا فشيئًا صارت هى النصرانية كما تعرفها الكنيسة، أى النصرانية الرسمية التى يشرد من لا يعتنقها ويكتب عليه الحرمان!

ولكن صيرورة النصرانية إلى هذا الوضع أوقعت المثقفين من النصارى فى قلق نفسى وفكرى دائم. فهم إما أن يستجيبوا لمنطقهم فيخرجهم من عداد المؤمنين إلى عداد الملحدين؛ وإما أن يلغوا عقولهم ليحتفظوا بعقيدة هذه الأساطير التى تحميها

الكنيسة، وإما أن يكلوا أنفسهم إلى القلق الروحى الدائم بين جوعتهم إلى العقيدة، ومنطقهم الذى ينفر من تلك الأساطير!

وفى الإسلام كاد يحدث ما حدث فى النصرانية. فالرغبة البشرية فى الأساطير والتهاويل ظلت تحاول أن تغشى على وضوح الإسلام وبساطته، وظلت تصوغ حول محمد بن عبد الله، وحول المختارين من آل بيته وبخاصة الحسين رضى الله عنه.. ظلت تصوغ الخرافات والهالات التى تأباها طبيعة الإسلام، وظلت تجد عند العامة قبولاً لا تجده حقائق الإسلام الواضحة البسيطة!

ولكن بناء الإسلام ذاته بقى سليمًا، وأصوله بقيت محفوظة. فلقد كانت طبيعته من الوضوح والبساطة بحيث بقيت هذه التهاويل والأساطير تتناثر على هامشه، ولا تدخل فى بنيته.

فى النصرانية قادت الكنيسة ذاتها هذه التهاويل وتبنتها، لأنها تزيد من سلطانها على نفوس الجماهير؛ وكان تعقيد العقيدة، وإحاطتها بأجواء من الغموض غرضًا مقصودًا لتكون للكنيسة فى حياة الناس وظيفة. وإلا فلو ظلت العقيدة المسيحية بسيطة كما هى، واضحة كما هى، مفهومة كما هى.. فماذا يصنع رجال الدين؟ وما حاجة الناس إليهم إذا استطاعوا هم بأنفسهم أن يفهموا دينهم، وأن يمارسوا شعائرهم، وأن يتصلوا مباشرة بخالقهم؟!.. إنه لابد من هذا الغموض. لابد من هذه الرؤى والأحلام والأساطير، كى يلجأ الناس إلى الكنيسة دائمًا، تحل لهم رموز العقيدة، وتكشف لهم بحساب عن الأسرار. وبذلك

يبقى سلطان الكنيسة كاملاً، وتبقى سلطتها كاملة، ولا يملك الناس أن يخطوا خطوة فى حياتهم الدينية، وفى حياتهم الروحية إلا ومعهم قسيس أو قديس!

أما فى الإسلام فلم تكن هناك كنيسة. لم تكن هناك هيئة «إكليروس» لا تقام شعائر الدين بدونها، ولا يتصل الفرد بخالقه إلا عن طريقها. والإسلام هو المنقذ للفكر البشرى لا من الأسطورة والوهم وحدهما، بل كذلك من ضغط المعجزة المادية الخارقة للنواميس الكونية المعروفة. فلم يشأ لهذا أن يجبر الفكر البشرى على الإذعان له بالخوارق المادية. إنما جعل وسيلته إلى الإدراك البشرى وضوحه وبساطته وحقائقه.. وحينما اتفق أن كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم.. ابن محمد الرسول - وضج الناس للحادث، وقالوا: كسفت الشمس لموت إبراهيم.. بادر محمد ﷺ لنفى هذه الشبهة، كى لا تغشى وضوح العقيدة ونصوعها، وأعلن أن الشمس آية من آيات الله لا تكسف لموت بشر. وبذلك الحزم الصارم، والصدق الناصع، نهنه الناسَ عن الاستسلام للرغبة الكامنة فى نفوسهم فى التهاويل الغامضة، ولم يسايرها ولم يستغلها لنشر دينه الجديد، لأنها فى صميمها مناقضة لطبيعة الدين الجديد.

وبهذه النصاعة وهذا الوضوح يعقد الإسلام السلام بين منطق الفرد وعقيدته، فلا يثور فى نفسه ذلك القلق المضنى الذى تثيره نصرانية الكنيسة المحرفة، ونظائرها من العقائد التى تمتزج فيها الحقيقة بالأسطورة. ويختلط فيها الحق بالباطل، وتتوارى من

النور والوضوح، فلا تعيش إلا فى جو البخور والتراتيل، لأنها تهرب من الضوء وتخشى أن تلقاه.

نعم. إن القطيع البشرى كان فى حاجة مُلحّة، وهو يواجه الكون العريض، والطبيعة الهائلة.. أن يحسَ إلهه قريبًا منه، معنيًا بآلامه وآماله، فجاء الكثير من أساطير النصرانية الكنسية ليلبى هذه الرغبة العميقة، فأنزل الله ـ سبحانه ـ من عليائه ليتحمل الآلام تكفيرًا عن خطيئة آدم، أو جعل ابنه الوحيد يحتملها رحمة بالبشر.. إلى آخر تلك الألغاز المحيرة للمنطق المقلقة للضمير. فأما الإسلام فيلبى هذه الحاجة، ولكن بما يتفق مع ألوهية الإله ووحدانيته. يلبيها بإشعار الإنسان أن الله قريب منه، مستجيب له، لا يغفل عن رعايته ولا ينساه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٨٦).. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر الآية: ٦٠).. ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ (سورة المجادلة الآية: ٧).. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سورة ق الآية: ١٦).. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (سورة هود الآية: ٦١).. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (سورة البروج الآية: ١٤).

وهكذا يجد الإنسان صلته الوثيقة بالله، ويحس رحمته ورعايته واستجابته دون ما حاجة إلى الأساطير المحيرة للعقول.

كذلك يعقد الإسلام السلام بين ضرورات الفرد الملحة، وأشواقه الروحية المرفرفة. ولكنه لا يعقده على حساب النوازع الضرورية، ولا على حساب الأشواق الروحية. إن فكرته فى الوحدة الكلية تطبع نظرته إلى الفرد الإنسانى، ونظرته إلى دوافع الحياة الممثلة فيه. والضرورات والأشواق كلتاهما تندمجان فى تناسق، فلا يضيع من طاقتهما الدافعة إلا ما يعارض هذا التناسق، وما يعوق نمو الحياة الكامل.

ومن ثم يعترف الإسلام منذ اللحظة الأولى بضرورات الحياة الأصيلة الكامنة فى طبيعة البشر، ولا يرى فيها - فى حالة الاعتدال السوى - ما يتعارض مع الرغبة فى التسامى، وهى كذلك أصيلة كامنة فى طبيعة البشر.

وحين يدعو الإسلام إلى التطهر الروحى، والانطلاق من قيود الشهوات، فإنه لا يعنى كبت الدوافع الحيوية، وإزهاق الطاقات الحية. إنما هو يدعو إلى أن يملك الإنسان قياد نفسه فلا يكون عبداً مملوكًا لشهواته، ولا حيوانًا مدفوعًا بنزواته. والإرادة هى مفرق الطريق بين الإنسان والحيوان فى المتاع: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ** ﴾ (سورة محمد الآية: ١٢).

فإذا ملك الإنسان أمره فإن عليه أن يعرف لبدنه حقه، وعليه أن يمتع نفسه بطيبات الحياة، وألاّ يحرم ما أحله الله. وما أحله الله يشمل كل ما تطلبه البنية الصحيحة السوية من لذة ومتاع.

إن دوافع الحياة الطبيعية كلها ليست مستقذرة فى عرف

الإسلام، والرغبة في الامتداد ليست سقوطًا يترفع عنه المتطهرون. فالرغبة في امتداد الحياة تتفق مع مشيئة الله في خلق الحياة، وإنما يريد الله ترقية الحياة لا مجرد امتدادها. وهذا الامتداد هو وسيلة الارتقاء، وليس مضاداً لفكرة الارتقاء. ومن ثم فالإسلام ينسق الدوافع الحيوية في بنية البشر، مع الأشواق الروحية العميقة في الفطرة، ويصوغ من كلتيهما وحدة، لا تفريط فيها ولا إفراط، ولا صراع في داخلها ولا اصطدام.

والدعوة إلى الاستمتاع في الإسلام تسير جنبًا إلى جنب مع الدعوة إلى التسامي، فتنشأ من بينهما صورة للاعتدال، البريء من الفحش، البريء من الحرمان: ﴿ يا بني آدم خُذُوا زينتكُم عند كُلِّ مسْجد وكُلُوا واشربُوا ولا تُسْرفُوا إنهُ لا يُحبُّ الْمُسْرفين (٣١) قُلْ منْ حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيِّبات من الرِّزْق قُلْ هي للذين آمنُوا في الْحياة الدُّنْيا خالصة يوم القيامة كذلك نُفصِّلُ الآيات لقوْم يعْلمُون (٣٢) قُلْ إنما حرم ربِّي الفواحش ما ظهر منْها وما بطن والإثْم والْبغْي بغيْر الْحقِّ وأن تُشْركُوا بالله ما لمْ يُنزِّلْ به سُلْطانًا وأن تقُولُوا على الله ما لا تعلمُون ﴾ (سورة الأعراف الآيات: ٣١-٣٣).

والفواحش من الفحش وهو تجاوز الاعتدال، وشأنه شأن البغي بغير الحق وشأن الإشراك بالله.. كلها مفسد للفطرة، مناف للعدالة، مخالف لناموس الحياة المتناسق.

وكذلك تجد الطاقات البشرية السوية مجالها للعمل فى بناء الحياة وفى ترقية الحياة، ولا يظل الفرد ممزقًا بين واقع حياته الضرورى لبقائه وبقاء الحياة معه، وبين الأشواق العلوية التى تهتف له وتناديه.

وكذلك يتم التناسق بين المحافظة على الحياة وترقية الحياة.. يتم هذا التناسق فى ضمير الفرد تبعًا لعقيدته، كما يتم فى محيط الجماعة تبعًا لسلوكه، فيجد الفرد نفسه فى سلام داخلى مع ضميره، وفى سلام خارجى مع سواه.

وكذلك يعالج الإسلام أسباب ما يسمى «العقد النفسية» التى أقام عليها «فرويد» وأتباعه مذهبهم، والتى عدّوها ضربة لازب لا مفر منها، ولعنة يفرضها المجتمع على الفرد بقيوده وتعاليمه، وبكبت الرغبات التى ينوب ضمير الفرد - أو الذات العليا - عن المجتمع فى فرض الرقابة عليها. هذه «العقد النفسية» لا وجود لأسبابها فى جو العقيدة الإسلامية، التى تعترف منذ الخطوة الأولى برغبات الفرد وضروراته، ولا ترى فيها قذارة ولا انحطاطًا، وتيسر له السبل لتصريفها تصريفًا مأمونًا معترفًا بشرعيته وبجديته وبنظافته كذلك - وهذا هو المهم - ما دام فى الحدود السوية المأمونة، التى لا تؤدى إلى إنحلال فى شخصية الفرد، ولا إلى انتكاس حيوانى فى محيط المجتمع.

ويلاحظ الإسلام هذه الرغبات الطبيعية البريئة ملاحظة دقيقة، فيقدر أن للمرأة فى بعض الأحيان رغبات فى المتاع والزينة غير

رغبات الرجل، ويبيح لها أحيانًا ما يحرمه عليه، مراعاة لفطرتها الأنثوية فى التزين والتجمل. يبيح لها خاتم الذهب ولباس الحرير على حين ينهى الرجل عن هذا التطرى، ويَعُدّه بالقياس إليه ترفًا مؤذيًا وكل ما يحرمه على المرأة فى هذا المجال هو التبرج، لأن المسألة هنا تخرج من دور المتاع البرىء إلى دور الاستثارة الحيوانية، وهذا هو مفرق الطريق!

وبذلك تنحصر الأسباب المؤدية إلى ما يسمى «العقد النفسية» - فى جو العقيدة الإسلامية - فى حالات الشذوذ المرضى. أما الطبائع السوية فتتم فيها التوازن والتناسق، وتختفى عوامل القلق، فينعم الفرد المسلم فى نفسه بالأمن والسلام.

الخطيئة والتوبة

ثم لا يقف الإسلام عند حد الاعتراف للفرد بضروراته وتنسيقها مع أشواقه.. بل يخطو وراء ذلك خطوة أخرى واقعية بصيرة.. إنه يعترف للفرد بدوافع الخطإ والخطيئة، فأما الخطأ والنسيان وما يقع عن إكراه فمعفيان من المؤاخذة إعفاء: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». وأما الذنب والخطيئة فباب التوبة منهما مفتوح فى كل لحظة، يدلف إليه من يشاء ليستغفر ويتطهر، فلا يطرده من رحمة الله طارد، ولا يوصد دونه ودون الله باب، ولا يقوم بينه وبين ربه وسيط.

فإذا ما انزلق الفرد إلى الخطيئة لم تقطع إليه السبل، ولم يصبح

ضائعًا مطرودًا ملعنًا، ولم يستبد به الظلام الكافر العاثر . .
فهنالك النور ، وهنالك الطريق ، وهنالك اليد الحانية الرحيمة . يد التوبة الندية ، تمنحه البرء والعافية ، وتغمره بالروح والظلام .
﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ (سورة الزمر الآية : ٥٣).

إن الإله فى الإسلام لا يطارد المذنب مطاردة أبدية ، حتى لا يقيل له عثرة ، ولا يقبل منه توبة ، إلا أن يقتل نفسه ، أو يعذب جسده ، أو ترتكس روحه فى أجسام قذرة رديئة حقبًا وأجيالاً .
وكفارة الخطيئة لا تقتضى أن ينزل الله من عليائه ـ سبحانه ـ ليصلب ويقاسى الآلام ، تكفيرًا عن خطيئة البشر ـ وهو خالق هؤلاء البشر ، وقادر على أن يطهرهم بغير صلبه ـ تعالى ـ وتعذيبه . وهى كذلك لا تحتاج إلى كاهن وكرسى اعتراف ، أو تبقى معلقة على رأس الفرد لا مخلص له منها ولا فرار . . !

إنه بحسب أى إنسان أن يتوجه إلى ربه مباشرة نادمًا تائبًا ، غير لاج فى خطيئته ولا سادر ، فيفتح له الله بابه ، ويتقبله بين عباده ، ويمنحه رحمته وعفوه . وباب الرحمة فى كل لحظة مفتوح ، ولا يأس من روح الله ولا قنوط ، فليطرق بابه مستأذنًا كل طارق ، بل ليدلف إليه دون استئذان : ﴿ **وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ (سورة يوسف الآية : ٨٧).

ويذهب الإسلام فى هذا مذهبًا بعيدًا ، حتى ليحسبه المرء عند

النظرة السريعة يزين للناس الخطيئة ليتوبوا من الخطيئة! . . يقول الرسول ﷺ : «كل بنى آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون»[1]. ويقول: «والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم»[2].

وهو لا يزين الخطيئة هنا، ولكن ييسر التوبة، ويملأ نفوس الخاطئين بالرجاء، وينير لأرواحهم الطريق، ويمنى هذه الأرواح المتعبة الخائفة بالراحة والأمان. فلا تظل أبدًا قلقة حائرة ممزقة لا يقر لها قرار.

ذلك فى الوقت الذى يفرض على ضمير الفرد اليقظة، ويكلفه على نفسه الرقابة، ويحذره خدعة الشهوات المحرمة، وفتنة النساء والأموال والأولاد، ويصور له عدوه ـ الشيطان ـ حريصًا على غوايته . دائم الوسوسة له والتربص به ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (سورة آل عمران الآيات: ١٤ ـ ١٧) . .

---

(١) اخرجه الترمذى.

(٢) رواه مسلم.

﴿ويا آدمُ اسْكُنْ أنت وزوجُكَ الجنةَ فكُلا منْ حيثُ شئتُما ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكُونا منَ الظالمين (١٩) فوسوس لهُما الشيطانُ ليُبدي لهُما ما وُوري عنْهُما من سوْءاتهما وقال ما نهاكُما ربُكُما عنْ هذه الشجرة إلاَّ أن تكُونا ملكيْن أوْ تكُونا من الخالدين (٢٠) وقاسمهُما إني لكُما لمن الناصحين (٢١) فدلاَّهُما بغُرُور فلمَّا ذاقا الشجرة بدتْ لهُما سوْءاتُهُما وطفقا يخصفان عليْهما من ورق الجنة وناداهُما ربُهُما ألمْ أنْهكُما عن تلكُما الشجرة وأقُل لكُما إنَّ الشيْطان لكُما عدُوٌّ مُبينٌ (٢٢) قالا ربنا ظلمْنا أنفُسنا وإن لمْ تغْفرْ لنا وترْحمْنا لنكُوننَّ من الخاسرين (٢٣) قال اهبطُوا بعْضُكُمْ لبعْض عدُوٌّ ولكُمْ في الأرْض مُسْتقرٌّ ومتاعٌ إلىٰ حين﴾ (سورة الأعراف الآيات: ١٩ ـ ٢٤).

ولكن الإسلام لا يصور الصراع بين الإنسان والشيطان فى هذه الصورة ليوقع الناس فى اضطراب نفسى دائم يمزق شخصياتهم، ويبعثر قواهم، بل يصوره ليدعوهم إلى اليقظة لدوافع الشر والخطيئة، ولينتهى إلى تنبيه أبناء آدم وحواء ألا يستسلموا للإغراء والإغواء.

﴿يا بني آدم لا يفْتننَّكُمُ الشيْطانُ كما أخْرج أبويْكُم منَ الجنة ينزعُ عنْهُما لباسهُما ليُريهُما سوْءاتهما إنهُ يراكُمْ هُو وقبيلُهُ منْ حيْثُ لا تروْنهُمْ إنا جعلْنا الشياطين أوْلياء للذين لا يُؤْمنُون﴾ (سورة الأعراف الآية: ٢٧).

وفى الوقت ذاته يقرر أن خطيئة آدم لم تظل مصلتة كالسيف القاطع على رءوس أبناء آدم، ولم تتطلب كفارة عجيبة ينهض بها الله ـ سبحانه ـ فى صورة ابن الله. فالأمر أيسر من هذا كله وأهون: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٣٧).

وبعد فهذا اليسر كله لا يفوت إلا من يصر على الخطيئة، وهذه الأبواب المفتحة كلها لا تغلق إلا فى وجه السادر فى الخطيئة: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ سورة البقرة الآية: ٨١). . ذلك أن الخطيئة السادرة تغلق القلب وتطمس الضمير؛ ومن ثم توصد الأبواب ويحق العقاب.

وما يدع هذه الفرص المتاحة كلها تفلت منه إلا من لا يستحق الرحمة ومن لا يريدها. فأما الكثير من الخطائين التوابين، فالإسلام يمنح ضمائرهم السلام، ويهب أرواحهم الاطمئنان، ولا يطلب منهم أكثر من اليقظة والمحاولة. واليقظة والمحاولة لا تمزقان الشخصية، ولا تورثان القلق. ولقد عرف الإسلام فى واقعه التاريخى رجالاً بلغت يقظة ضمائرهم حد الإرهاف، ولكن أرواحهم كانت فى ذروة الاطمئنان، وكانوا هم من الواقعيين العمليين المنشئين كأعظم ما يكون الرجل الواقعى العملى المنشئ فى الحياة. وعلى رأس هؤلاء جميعًا أبو بكر وعمر منشئا الإسلام وكافلاه بعد رسول الله. وإنهما لنموذجان كاملان، لليقظة المرهفة

فى الضمير ، والاطمئنان الواثق فى الشعور ، وتجمع الشخصية ، ووحدة الاتجاه فى واقع الحياة .

التكليف والطاقة

يلاحظ الإسلام بصفة عامة ألا يكلف الفرد فوق طاقته ، فى شرائعه أو شعائره ، فالتكليف فوق الطاقة ، إيجابًا أو منعًا ، لا ينتهى إلا إلى نتائج ثلاث :

١ ـ إما الإرهاق والعسر ، والحرمان والكبت ، وتحطيم الذات الإنسانية تحت الكبت أو الارهاق ، وتعويق الحياة عن النمو المطرد ، والرقى المعتدل .

٢ ـ وإما النفور والجماح والخروج على الأوامر والنواهى ، والعداء الجامح الذى يقود صاحبه إلى الغلو فى الإباحة ، كرد فعل للكبت أو الإرهاق .

٣ ـ وإما القلق النفسى الدائم ، والشعور دائمًا بالخطيئة أو التقصير ، فيما لا خطيئة فيه ولا تقصير . وهو عذاب دائم لا يطاق .

ولذلك يحرص الإسلام على أن تكون تكاليفه كلها فى حدود الطاقة ، ويرعى الطبيعة البشرية بكل إمكاناتها وهو يشرع إيجابًا وتحريمًا ، ثم يدع لها أن تتطوع بالأكثر فوق التكاليف المفروضة ، إن استطاعت ، فى غير ضيق ولا حرج ولا مشقة . وبذلك يصونها

من التحطيم، ويصونها من الجموح؛ ويصونها من القلق الذى لا يريح.

وفى ذلك يقول الله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿ **لا يُكلِّفُ اللهُ نفْسًا إلاَّ وُسْعها** ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٨٦). ﴿ **وما جعل عليْكُم في الدِّين من حرج** ﴾ (سورة الحج الآية: ٧٨). ويقول الرسول العظيم: «إن هذا الدين يسر لا عسر ولن يشاد الدين أحد إلا غَلَبَه»[(١)]. وينهى ﷺ عن التنطع والتشدد فى تفسير الدين وفى القيام بتكاليفه فيقول: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم»[(٢)] أو يقول: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق»[(٣)]. ويشبه المتشدد المرهق لنفسه بالمسافر الذى يهلك راحلته ولا يبلغ غرضه: «إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى»[(٤)].

وفيما مضى أمثلة على هذا القصد والاعتدال ومراعاة الطاقة، وبخاصة فى التنسيق بين الضرورات والأشواق، وفى الاعتراف بدواعى الخطإ والخطيئة، ولا بأس من أن نسوق منه ناحية أخرى.

إن انفعالات الغضب ووجدانات الغيظ انفعالات ووجدانات لا سبيل إلى محوها أو قتلها فى النفس البشرية لأسباب شتى. بعضها ينبع من الشعور بالذات، وبعضها ينشأ من تصادم

---

(١) البخارى والنسائى.

(٢) أبو داود.

(٣) البخارى.

(٤) البخارى.

المصالح، وبعضها يأتي من اختلاف المشاعر والمسالك..

والإسلام يدعو إلى السماحة والرفق والبشاشة، ولكنه لا يلغى من حسابه أن مشاعر الغضب والغيظ مشاعر طبيعية، فلا يكلف الناس محوها من النفوس محوًا، ولا يعدها فى ذاتها خطيئة وإثمًا، إنما يدعو إلى كظمها وضبطها، لا على أن تستحيل أحقادًا وضغائن فى الصدور، بل على أن يكون هذا الضبط سبيلاً إلى التسامى والتصعيد. وفى هذا السبيل يأخذ النفس البشرية بالترغيب والتحضيض لا بالأمر والتكليف: ﴿ **ولمن صبر وغفر إنَّ ذلك لمنْ عزْم الأمُور** ﴾ (سورة الشورى الآية: ٤٣)..

﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس** ﴾ (سورة آل عمران الآية: ١٣٤). وهكذا يقرن الصبر بالغفران، ويتبع الكظم بالعفو، لأن الصبر والكظم إن لم يوجها إلى الغفران والعفو فقد يؤديان إلى الضغينة والحقد، والإسلام يكره الضغينة وينفر من الحقد، فيوجه ويرغّب فى العفو والسماحة، ليغسل النفوس من الغيظ والغضب، قبل أن يستحيلا حقدًا وضغينة. ويجعل دعاء المؤمنين المحبوب: ﴿ **ولا تجْعلْ في قُلُوبنا غلاً للّذين آمنُوا** ﴾ (سورة الحشر الآية: ١٠) ويصف أهل الجنة حين يصفهم بالرفعة والسمو فيقول: ﴿ **ونزعْنا ما في صُدُورهم مّنْ غلّ** ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٤٣).. ويتحدث عن «عباد الرحمن» فيقول: ﴿ **وعبادُ الرّحْمن الّذين يمْشُون على الأرْض هوْنًا وإذا خاطبهُمُ الْجاهلُون قالُوا سلامًا** ﴾ (سورة الفرقان الآية: ٦٣). أى قابلوا خطاب الجاهلين الجافى الذى لا تهذيب فيه بالتجمل والسماحة.

والإسلام يكره أن تقع الخصومة بين المسلم والمسلم، وأن تسودهما القطيعة، ولكنه يقدر أن شعور الغضب لا يمكن محوه، ولا يعده ذنبًا بمجرد وقوعه، ولا يقول كالنصرانية الكنسية: «من غضب على أخيه باطلا كان مستوجب الحكم». فإذا دعا إلى الصلح والوئام، أعطى فرصة من الزمن تهدأ فيها الثورة، وتخمد فيها النزوة، وترجع فيها النفس إلى الهدوء والسكينة، فيمنح كلا من المتخاصمين ثلاثة أيام، يفثأ فيها غضبه، وتسكن فيها نفسه، قبل أن يلزمهما بالسلام بعد الخصام: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام»[1].

والإسلام يكره الجزع الذى تتهاوى بسببه النفس، ويتداعى إيمانها بالله واحتمالها للمكروه، لأن الصبر والتماسك مقياس القوة ومقياس الإيمان، فيقول الرسول الكريم: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[2]. ولكنه لا يعد الحزن والدمع جريمة، ولا يقهر النفس على السكون الكامل الجامد، لأنه فوق الطاقة، وربما قاد إلى القسوة والتحجر. فها هو ذا محمد رسول الله نفسه تدمع عيناه على ابنه إبراهيم، ويناجيه وهو مسجى: «يا إبراهيم، إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[3].. إنما

(١) البخارى.
(٢) الخمسة إلا أبا داود.
(٣) رواه الأربعة.

الصبر الذى يتطلبه الإسلام هو صبر التأسي والتجمل وتذكر الله ورد الأمر إليه فى الكروب: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (١٥٥) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون (١٥٦) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ (سورة البقرة الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧).

وهكذا.. وهكذا.. لا يكلف الإسلام نفسًا إلا طاقتها، فلا تنكل عن التكاليف، ولا تنوء تحتها، ولا تبقى قلقة ممزقة بين التكليف والطاقة، بل تنعم بالاستجابة وتطمئن بالطاعة، وتقر عينًا بها وتستريح.

الاطمئنان إلى الله

ويسكب الإسلام فى النفس السكينة والأمن والسلام، بالركون إلى الله والاطمئنان إلى جواره، والثقة فى رحمته ورعايته وحمايته. ويتميز الإسلام بأن العلاقة فيه مباشرة بين الرب والعبد، لا يدخل فيها كاهن ولا قسيس، ولا تتعلق بإرادة مخلوق فى الأرض ولا فى السماء.

وفى ظل هذه الصلة المباشرة يحس الفرد أنه يرتكن إلى القوة التى ليس فوقها قوة، والتى لا تعدلها قوة. وهى أبدًا حاضرة، وفى متناوله أن يركن إليها ويستعينها، متى أخلص نفسه لها، فلم يشرك بها فى شعوره قوة، ولم يحسب لغيرها فى ضميره حسابًا: ﴿وقال

رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر الآية: ٦٠). . ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٨٦).

وفى ظل هذه القوة تتضاءل قوى الأرض جميعًا. وتتساقط أغشية العظمة الكاذبة، والجبروت الزائف، ويبدو الأقوياء والأغنياء وأصحاب الجاه والنفوذ والسلطان جميعًا، أقزامًا ضعافًا ضئالاً لا يملكون لإنسان نفعًا ولا ضرًا: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا﴾ (سورة التوبة الآية: ٥١).

فكل قوى الأرض لا تقدر على ذبابة: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (سورة الحج الآية: ٧٣).

وفى ظل هذه القوة يأمن الفرد على رزقه ومكانته، أمنه على حياته وسلامته، فما من قوة وما من أحد يملك أن يضاره فى رزق ولا فى مركز ولا فى شىء من أمور الدنيا وأمور الآخرة، وإنه لقوى قوى، وكفء لكل قوة تتصدى له، لأنه يستمد من تلك القوة الكبرى التى لا ينضب لها معين، والتى تصرف الكون كله، وتصرف الجبابرة والسلاطين: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٢٦). . ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ

فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ (سورة آل عمران الآية: ١٦٠). . ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ﴾ (سورة فاطر الآية: ١٠). . ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (سورة المنافقون الآية: ٨) ﴿ يأيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ (سورة فاطر الآية: ٣).

فإذا تكاتفت قوى الأرض جميعًا لتبغى به الأذى، فما هي بقادرة إلا أن يشاء الله. فإذا شاء الله أن يناله الأذى، فهنالك حكمة سامية لله، وهنالك خير أعلى من خير الفرد المحدود، بل هنالك خير لهذا الفرد قد لا يعلمه اللحظة، ولكن الخالق الأعظم المحيط بالكائنات يعلمه: ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢١٦).

وما على الفرد إلا أن يسلم نفسه لله، وإلا أن يجعل رضا الله غايته، وإلا أن يجاهد ليجعل كلمة الله هى العليا، وليحقق إرادة الله فى الأرض ولا يستسلم يومًا ولا يهن. ولا يأسى على سبيل ما فاته فى هذا ولا يتبرم، وكل ما قدمه فى هذا السبيل فهو محفوظ له عند ربه ولن يضيع: ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (سورة آل عمران الآية: ١٦٩). ﴿ والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ (سورة محمد الآية: ٣٥).

والله بعد ذلك كله حفي به مكرم له : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (سورة الإسراء الآية : ٧٠) . . وهو به رحيم وعليه حان . إن أثم قبل توبته وعفا عنه ، أو حاسبه على السيئة سيئة ، وإن ضل هداه وأرشده ، وإن أحسن ضاعف له الجزاء ، وما يحق عقابه الشديد إلا على الذين يلجون فى الغواية : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول ﴾ (سورة غافر الآية : ٣) ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ (سورة الأنعام الآية : ١٦٠) .

وبذلك كله تطمئن النفس وتسكن وتثق ، فلا تهزها الأحداث ، ولا تذهب بها الأهوال . ولا تفزع من شيء ولا تخاف : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (سورة الرعد الآية : ٢٨) .

الضمانات والتأمينات

وبعد ، فالإسلام بحسب نظرته الكلية إلى الحياة ودوافعها ودواعيها ، وضروراتها وأشواقها ، ومادياتها وروحياتها . . لا يكل الفرد إلى عقيدته الروحية فى الضمير ، بل يعينه عليها بتحقيق أسبابها فى عالم الواقع . فعالم الواقع فى الإسلام إن هو إلا الترجمة العملية لعالم الضمير .

ومن ثم فهو لا يقف عند توفير الضمانات للفرد باطمئنانه إلى الله . بل يشرع لحياته الواقعة ما يكفل الضمانات المطمئنة . فلا يحس الفرد من حوله إلا أمنا وعدلاً وكفاية للضرورات .

إن الإسلام يؤمّن الفرد من كل اعتداء . اعتداء فرد مثله ، أو اعتداء حاكم عليه ، فهو يشعر بأنه يعيش فى وسط يحبه ولا يعاديه ، ويحرص على ذاته وماله وعرضه : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١] . . «كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله»[٢] . «والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن قيل من يا رسول الله؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه»[٣] .

وليس للحاكم عليه من سلطان إلا فى حدود القانون . القانون الإلهى الذى يخضع له كما يخضع السلطان سواء . والذى لا يستمد من هوى الحاكم ، ولا هوى طبقة ولا أمة ، ولا يسن ليحقق مصلحة لحاكم أو لطبقة أو أمة . إنما شرعه الله إله الجميع ومالك الجميع لمصلحة الجميع . والخضوع له خضوع لله ، لا لعبد من عباده ، والضمانات فيه للجميع ، لأنه مشروع للجميع .

وتلك ميزة قيام الدولة على شريعة الدين وقانونه . فالحرية الكاملة من كل عبودية أرضية لن تكون إلا فى ظل مثل هذا القانون . وما دامت جماعة من البشر أيّا كانوا يشرعون لجماعة

---

(١) الخمسة إلا أبا داود .

(٢) أخرجه الستة إلا النسائى .

(٣) أخرجه الشيخان واللفظ للبخارى .

من البشر، فلن تتحقق الكرامة المطلقة، ولن تتحقق المساواة المطلقة، ولن تتحقق المصالح المطلقة. إن الحاكمين سيحسون دائمًا أنهم أرباب، لأنهم هم الذين يضعون التشريع، وإن القانون سيظل دائمًا فى مصلحة طبقة دون طبقة، ولن يحقق مصالح الجميع.. هنالك حالة واحدة يخضع فيها الفرد للقانون وهو شاعر بعزته كاملة وحريته كاملة ومصلحته كاملة.. حالة استمداد التشريع كله من شريعة الله، الذى لا حاكم إلاه، ولا مسيطر سواه، ولا مصلحة له فى نصرة طبقة على طبقة ولا إخضاع طبقة لطبقة. وعندئذ فقط يطمئن الفرد إلى العدل المطلق ويستريح. وعندئذ فقط يطامن الحاكم من كبريائه التى يستمدها من سلطة التشريع، ويحس أنه لا يملك شيئًا إلا أن ينفذ القانون الإلهى، الذى فرض عليه وعلى كل فرد سواء.. وهذا هو التحرر الكامل الصحيح.

والإسلام يوفر للفرد فى قانونه هذا كل ضماناته: يحفظ عليه حياته وماله وعرضه، فلا تمس إلا بحق الله فيها، ويحميه من السخرية منه، أو التجسس عليه أو اغتيابه، أو أخذه بالظنة:

﴿ يأيُّها الَّذين آمَنُوا لا يَسْخَرْ قومٌ مّن قوْمٍ عسىٰ أن يكُونُوا خيْرًا مّنْهُمْ ولا نساءٌ مّن نّساءٍ عسىٰ أن يكُنّ خيْرًا مّنْهُنّ ولا تلْمزُوا أنفُسكُمْ ولا تنابزُوا بالألْقاب بئْس الاسْمُ الفُسُوقُ بعْد الإيمان ومن لّمْ يتُبْ فأُولئك هُمُ الظّالمُون (١١) يأيُّها الّذين آمنُوا اجْتنبُوا كثيرًا مّن الظّنّ إنّ بعْض الظّنّ إثْمٌ ولا تجسّسُوا ولا يغْتب بّعْضُكُم بعْضًا

أيحبُّ أحدُكُمْ أن يأكُل لحْمَ أخيه ميْتًا فكرهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ توَّابٌ رَّحيمٌ ﴾ (سورة الحجرات الآيتان: ١١، ١٢).

ويضمن له حرية داره وحرمتها فلا يتسورها عليه أحد، ولا يدخلها بغير إذنه أحد: ﴿ يأيُّها الَّذين آمنُوا لا تدْخُلُوا بُيُوتًا غيْر بُيُوتكُمْ حتَّىٰ تسْتأْنسُوا وتُسلِّمُوا علىٰ أهْلها ذلكُمْ خيْرٌ لَّكُمْ لعلَّكُمْ تذكَّرُون (٢٧) فإن لَّمْ تجدُوا فيها أحدًا فلا تدْخُلُوها حتَّىٰ يُؤْذن لكُمْ وإن قيل لكُمُ ارْجعُوا فارْجعُوا هُو أزْكىٰ لكُمْ واللَّهُ بما تعْملُون عليمٌ﴾ (سورة النور الآيتان: ٢٧، ٢٨).

حتى الجريمة لا يجوز إثباتها بتسور البيوت والتجسس على الناس فى مأمنهم. وقد روى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مر فى إحدى جولاته الليلية ببيت سمع فيه صوت رجل وامرأة لعله رابه، فتسور الحائط لينظر، فإذا رجل وامرأة ومعهما زق خمر. فقال عمر: يا عدو الله! أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصيته؟! فقال الرجل: يا أمير المؤمنين! أنا عصيت الله فى واحدة وأنت فى ثلاث: فالله يقول: ﴿ ولا تجسَّسُوا ﴾ وأنت تجسست علينا، والله يقول: ﴿ وأْتُوا الْبُيُوت منْ أبْوابها ﴾ (البقرة: ١٨٩) وأنت صعدت من الجدار ونزلت منه. والله يقول: ﴿ لا تدْخُلُوا بُيُوتًا غيْر بُيُوتكُمْ حتَّىٰ تسْتأْنسُوا وتُسلِّمُوا علىٰ أهْلها ﴾ وأنت لم تفعل.

وهكذا لم يجد عمر أنه يملك عقابه لأن «الإجراءات باطلة»! فاستتابه!

وبمثل هذه الضمانات يكفل الإسلام للفرد طمأنينته وحريته وحرماته جميعًا. فإذا اعتدى عليها معتد فالقصاص حاضر أيًّا كان هذا المعتدى، ولو كان الحاكم الأعلى، فما ميز الإسلام فى قانونه ولا فى واقعه التاريخى - حينما كان يحكم - بين خليفة أو أمير وبين فرد من عامة المسلمين فى القصاص. محمد رسول الله كان يقيد من نفسه، وعمر بن الخطاب يدع ابن المصرى من عامة الشعب يضرب «ابن الأكرمين» ابن عمرو بن العاص حاكم مصر حتى يرضى، وعلى بن أبى طالب يخاصم نصرانيًّا سرق درعه إلى قاضيه شريح، فيحكم القاضى ضده لأنه لا يملك بينة على السارق، فيبتسم الخليفة ويرضى!

وهكذا وهكذا مما لا يتسع المجال لتفصيله هنا وحسبنا منه الإشارة[1].

ثم يضمن الإسلام للفرد رزقه فى عنق الجماعة: يضمنه بالعمل والنصفة فى الأجر عند القدرة، وبالضمانات الاجتماعية عند التعطل وعند العجز وعند المرض وعند الشيخوخة؛ ويكفله للطفل رضيعًا وناشئًا حتى يقدر على العمل. وسنفصل الحديث فى هذه الضمانات كلها عند الكلام عن سلام المجتمع، فحسبنا

---

(١) يراجع فصل «من الواقع التاريخى» فى كتاب «العدالة الاجتماعية فى الإسلام».

هنا ما يشير إلى ضمانات الفرد التى تدخل السكينة إلى نفسه والاطمئنان إلى روحه فى واقع الحياة العملية، بعد السكينة الروحية التى يجدها فى العقيدة الإسلامية.

وإن الإسلام ليوفر أسباب السلام كلها فى قرارة الضمير؛ وشعاره فى هذا المجال ما أعربنا عنه فى أول الفصل: «لا سلام لعالم ضمير الفرد فيه لا يستمتع بالسلام».

ســــلام البيت

البيت مثابة وسكن؛ وفى ظله تنبت الطفولة، وتدرج الحداثة، ومن سماته تأخذ سماتها وطابعها، وفى جوه تتنفس وتتكيف.. وكم من أحداث وحوادث وقعت على مسرح المجتمع، وأثرت فى سير التاريخ، تكمن بواعثها الخفية فى مؤثرات بيتية.

والفرد الذى لا يستمتع فى بيته بالسلام، لن يعرف للسلام قيمة، ولن يتذوق له طعمًا، ولن يكون عامل سلام وفى أعصابه معركة، وفى نفسه قلق، وفى روحه اضطراب.

والإسلام يتجه إلى بذر بذور السلام فى البيت، فى الوقت ذاته الذى يتجه فيه إلى الضمير الفردى، وإلى المجتمع الدولى.. فكلها حلقات متضامنة، وفيما بينها ترابط واتصال.

الرباط المقدس

يبدأ الإسلام أولاً بتصوير العلاقة البيتية تصويرًا رفافًا شفيفًا، يشع منه التعاطف، وترف فيه الظلال؛ ويشيع فيه الندى، ويفوح

منه العبير: ﴿ومن آياته أنْ خلقَ لكُم مّنْ أنفُسكُمْ أزواجا لّتسْكُنُوا إليْها وجعل بيْنكُم مّودّةً ورحْمةً﴾ (سورة الروم الآية: ٢١). .

﴿هُنّ لباسٌ لّكُمْ وأنتُمْ لباسٌ لّهُنّ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٨٧). .

فهى صلة النفس بالنفس، وهى صلة السكن والقرار، وهى صلة المودة والرحمة، وهى صلة الستر والتجمل. وإنك لتحس فى الألفاظ ذاتها حنواً ورفقاً، وتستروح من خلالها نداوة وظلاً. وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التى يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنسانى الرفيق الوثيق. ذلك فى الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها بما فيها امتداد الحياة بالأولاد، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة، ويعترف بطهارتها وجديتها، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها، ذلك حين يقول: ﴿نساؤُكُمْ حرْثٌ لّكُمْ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٢٣) فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار.

يحيط الإسلام هذه الخلية، أو هذا المحضن، أو هذه المثابة، بكل رعايته وبكل ضماناته. وحسب طبيعة الإسلام الكلية، فإنه لا يكتفى بالإشعاعات الروحية، بل يتبعها التنظيمات القانونية، والضمانات التشريعية.

فأولاً: لابد فى هذا الارتباط من الرضا والاستئذان، فلا تزوج المرأة بغير إذنها ورضاها: «لا تنكح الثيب حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها الصموت»[1]. ولابد فيه من الرؤية

(١) أخرجه الشيخان.

ليكون هذا الرضا جديًا وقائمًا على حقيقة، ومنبعثًا من شعور: «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»[1].

وثانيًا: لابد فيه من علانية وإشهاد، فلا يتم فى السر والخفاء كما تتم الجريمة، ولابد من إيجاب وقبول صريحين يشهد عليهما الشهود، فلا يبقى ظل من شك أو غموض فى قيام هذا الارتباط، حتى ليستحب دق الطبول لهذه المناسبة زيادة فى الاعلان!

وثالثًا: لابد فيه من نية التأبيد لا التوقيت؛ فإذا نوى أو صرح بأن يكون هذا الزواج موقوتًا بزمن لم ينعقد. لأن هذا الارتباط مقصود به السكن والاستقرار، مقصود به أن يركن إليه الزوجان فى اطمئنان، وأن يبنيا فى ظله الحياة وهما واثقان آمنان.

ولكى يهيئ الإسلام للبيت جوه؛ ويهيئ للفراخ الناشئة فيه رعايتها.. أوجب على الرجل النفقة وجعلها فريضة، كى يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب، وما تهيئ به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها. فالأم المكدودة بالعمل للكسب، المرهقة بمقتضيات العمل، المقيدة بمواعيده، المشتتة الطاقة فيه.. لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها. وبيوت الموظفات والعاملات ما تزيد على جو الفنادق والخانات؛ وما يشيع فيها ذلك الأرج الذى يشيع فى البيت. فحقيقة البيت لا توجد إلا أن تنشئها امرأة؛ وأرج البيت لن يفوح إلا أن تطلقه

---

(١) من حديث عن المغيرة بن شعبة ذكر صاحب مصابيح السنة أنه من الحسان.

زوجة؛ وحنان البيت لن يشيع إلا أن تتولاه أم. والمرأة أو الزوجة أو الأم التى تقضى وقتها وجهدها وطاقتها الروحية فى العمل لن تطلق فى جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال!

إن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول، فى عصور الانتكاس والشرود والضلال.

وفى سبيل الاستقرار البيتى وقطعًا لدابر الفوضى والنزاع فيه، جعل الإسلام القوامة فيه للرجل، وذلك تمشيًا مع سياسة التنظيم التى يحرص عليها الإسلام حرصًا شديدًا، والتى جعلت الرسول يأمر الرجال أن يؤمّروا عليهم أحدهم حتى لو خرج ثلاثة فى أمر فأحدهم أمير.

إن توحيد القيادة ضرورى لأمن السفينة، وفى سفينة البيت لابد من قيادة تحتمل التبعة، وتحفظ النظام أن ينتكث، وما فى هذا من شذوذ على القاعدة الإسلامية العامة فى عالم الرجال أيضًا. فأى الزوجين كان المنطق كفيلاً بأن يسلمه القيادة؟ المرأة المشبوبة العواطف والانفعال بحكم وظيفتها الأولى فى رعاية الأطفال وتعطير جو البيت بالجمال؟ أم الرجل الذى كلفه الإسلام الإنفاق لتخلو المرأة إلى عبئها الضخم، وتنفق فيه طاقتها ووسعها؟ لقد جعل له الإسلام القوامة، تحقيقًا لنظامه المطرد أن تكون فى كل عمل قيادة وقوامة، واختاره لأنه بخلقته وتجاربه أصلح الاثنين لهذه الوظيفة.

وهكذا حين تعرض المسألة فى بساطتها هذه وفى وضوحها، ينكشف ذلك اللغط الهادر الذى تلوكه ألسنة الفارغين والفارغات فى هذا الزمان حول هذا النظام، ويتجلى أن فراغ الحياة وفراغ القلوب وفراغ العقول، هو الذى ينشئ ذلك اللغط، ويجعله موضوع جدل ومادة حديث. وهو نظام قصد به الإسلام أن يكون حلقة من حلقات السلام فى البيت، وضمانة للاستقرار فيه والنظام. ولكن فى عهود الانتكاس، وفى فترات الفراغ من جديات الأمور، لا يبقى للمجتمع ما يحفل به إلا الفتات والقشور، وإلا الهذر واللجاج!

الاختلاط والتبرج

وفى سبيل السلام البيتى، وإشاعة الثقة واليقين فيه كان النهى عن التبرج، وكان التحرج من الاختلاط، وكان الأمر بالحشمة والتحفظ، حتى لأمهات المؤمنين فى عهد الرسول: ﴿ يأَيُّها النَّبيُّ قُل لأَزْواجك وبَنَاتكَ ونساء الْمُؤْمنين يُدْنين عليْهنَّ من جلابيبهنَّ ﴾ (سورة الأحزاب الآية: ٥٩).. ﴿ قُل لِّلْمُؤْمنين يغُضُّوا من أبْصارهمْ ويحْفظوا فُرُوجهُمْ ذلك أزْكىٰ لهُمْ إنَّ اللَّه خبيرٌ بما يصْنعُونَ (٣٠) وقُل لِّلْمُؤْمنات يغْضُضْنَ منْ أَبْصارهنَّ ويَحْفَظْنَ فُرُوجهُنَّ ولا يُبْدين زينتهُنَّ إلاَّ ما ظهر منْها ولْيضْرِبْن بخُمُرهنَّ علىٰ جُيُوبهنَّ ولا يُبْدين زينتهُنَّ إلاَّ لبُعُولتهنَّ أوْ آبائهنَّ أوْ آباء بُعُولتهنَّ أوْ أبْنائهنَّ أوْ أبْناء بُعُولتهنَّ أوْ إخْوانهنَّ أوْ بني إخْوانهنَّ أوْ بني أخواتهنَّ

أو نسائهنّ أو ما ملكتْ أيمانُهُنّ أو التابعين غير أُولي الإرْبة من الرّجال أو الطّفْل الّذين لمْ يظْهرُوا على عوْرات النّساء ولا يضْربْن بأرْجُلهنّ ليُعْلم ما يُخْفين من زينتهنّ وتُوبُوا إلى اللّه جميعًا أيّه الْمُؤْمنُون لعلّكُمْ تُفْلحُون﴾ (سورة النور الآيتان: ٣٠، ٣١).

إن من حق الرجل كما أن من حق المرأة أن يطمئن كلاهما إلى رفيقه، وألا يتعرض للإغراء الذى قد تنحرف معه عواطفه عن شريكه، إن لم يقده الانحراف إلى الانزلاق والخطيئة، مما يهدد ذلك الرباط المقدس، ويطيِّر عن جوه الثقة الكاملة والاطمئنان.

هذا الانحراف فى العواطف والانزلاق إلى ما هو أبعد، واقع كل يوم وكل لحظة فى المجتمعات التى ينطلق فيها الاختلاط، وتنطلق فيها المرأة متزينة متبرجة، وتنطلق معها شياطين الفتنة والإغراء. وهذر فارغ يكذبه الواقع ما تلهج به ألسنة الببغاوات هنا وألسنة الشاردين هناك من أن الاختلاط يهذب المشاعر، ويصرِّف الطاقات المكبوتة، ويعلم الجنسين آداب الحديث وآداب المعاشرة، ويزود بالتجربة التى تصون من الزلل. وأن الاختيار القائم على التجربة الكاملة - حتى عنصر الخطيئة - كفيل بأن يمسك الشريكين كلاً لصاحبه، لأنه إنما اختاره عن رضا، وبعد تجربة..

أقول: هذر يهدمه الواقع، واقع الانحرافات الدائمة والتحولات المستمرة فى العواطف، وتحطيم البيوت بالطلاق وغير الطلاق، وانتشار الخيانات الزوجية المزدوجة فى تلك المجتمعات.

إن التجربة الكاملة لا تمنع أن تبرز فى حياة الزوج أو الزوجة

بالاختلاط الطليق شخصية أخرى أقوى وأكمل وأشد جاذبية.
فماذا يقع حينذاك؟ إما أن ينزلق الزوج أو تنزلق الزوجة استجابة لهذا الهوى الجديد. وإما أن يقاوم هو أو هي احتفاظًا بالواجب، فيقع فى القلق والحيرة والاضطراب.. وكلاهما طريق لا يقود إلى سلام فى القلب ولا إلى طمأنينة فى الروح، ولا إلى أمن فى البيوت.. ودع عنك تدلى الإنسانية فى الفاحشة، وارتكاسها فى البهيمية، وانتكاسها إلى مثل فوضى الحيوان ونزواته المطلقة العنان!

فأما خرافة التهذيب والتصريف النظيف باللقاء وبالحديث.. فليسألوا عنها نسبة الحبالى من تلميذات المدارس الثانوية الأمريكية، وقد بلغت فى إحدى المدن ٤٨ من المائة[1]. وأما البيوت السعيدة بعد زواج الاختلاط المطلق والاختبار الكامل فليسألوا عنها نسبة البيوت المحطمة بالطلاق فى أمريكا، وهى تقفز فترة بعد فترة كلما ازداد الاختلاط وكلما تم الاختبار! وهذه النسبة المخيفة تمضى فى هذه الخطوط، حسب إحصائية أمريكية صدرت فى سنة ١٩٥٠ :

التاريخ	النسبة فى المائة
سنة ١٨٩٠	٦٪
سنة ١٩٠٠	١٠٪
سنة ١٩١٠	١٠٪
سنة ١٩٢٠	١٤٪
سنة ١٩٣٠	١٤٪
سنة ١٩٤٠	٢٠٪
سنة ١٩٤٦	٣٠٪
سنة ١٩٤٨	٤٠٪

(١) فى إحصاء عن مدينة «دنفر» عاصمة ولاية كولورادو. وأحسب أننا ماضون فى طريق دنفر بعد أن اخترنا لأنفسنا أخيراً هذا الطريق اللعين!

والبقية تأتى من البيوت المحطمة تحت مطارق الشهوات الجامحة، والرغبات المتقلبة، والقلق الجانح؛ الذى يثيره تقلب العواطف فى المجتمع المختلق، الذى تلوح فيه للأزواج والزوجات مزايا جديدة فى نساء جدد ورجال، فينفلت هؤلاء وهؤلاء إلى صيد جديد، وتتأرجح البيوت فى مهاب الريح، كلما لمح زوج أو لمحت زوجة بارقة لامعة فى شخصية جديدة، كما لو كان الزوج أو كانت الزوجة قطعة أثاث أو رباط عنق أو زيّا جديداً فى عالم «المودات»!

لقد آن أن تراجع البشرية تلك النظريات الخيالية الخاوية التى تقول: إن الاختلاط تصريف جزئى ملطف نظيف، وإن التجربة تقود إلى الاختيار، وإن الاختيار طريق الاستقرار.

إنها نظريات تبدو منطقية؛ ولكن التجربة الواقعية؛ التى بلغت فى أمريكا بالذات غايتها، كفيلة بأن تسخر من هذا المنطق الظاهرى البراق! فلم يؤد الاختلاط إلى تصريف نظيف، إنما أدى إلى بهيمية كاملة تطيع النزوات الجسدية وتلبيها بلا حد ولا قيد. ولم تؤد التجربة الكاملة والاختلاط المطلق إلى التماسك فى البيوت؛ ولا إلى استقرار وثبات، إنما أدى إلى تفكك دائم؛ وطلاق متزايد، وجوع مستمر وسعار!

وإن التجربة الأمريكية فى هذا المجال لتجبه آراء «فرويد» وأمثاله بالتكذيب. إنها لتصرخ فى وجه من يريد أن يسمع، بأن الاختلاط الدائم مدعاة إلى تهييج دائم؛ إما أن ينتهى إلى ذروته وغايته فينطفئ مؤقتًا ريثما يعود إلى الاشتعال. وإما ألاّ ينتهى إلى

هذه الغاية العملية المادية، فيؤدى إلى الضغط العصبى وما وراءه من أمراض.

ولقد كان الإخلاص العلمى وحده كفيلاً بإعادة النظر فى هذه النظريات كلها على ضوء التجربة الأمريكية الواقعية، التى تشهد بأن الدوافع الجسدية من القوة والعمق بحيث لا يطفئها تصريف الاختلاط، ولا حتى تصريف الارتواء. فأنت لا تسكت جوعة المعدة بشم رائحة الشواء، بل تزيدها تشهيًا! وأنت لا تسكت هذه الجوعة كذلك بالأكلة الدسمة المتخمة إلا إلى حين، تفيق بعدها وهى أشدها تشهيًا وأطلب للأكلات الدسمات! وما جوعة الجسد إلا كجوعة المعدة كلتاهما دائمة. وقد شاءت لها القدرة الخالقة هذا الدوام، لأنها تنوط بها مهمة دائمة فى امتداد الحياة وارتقاء الحياة. وهذا هو الذى تصرخ به التجربة الأمريكية فى وجوه النظريات والخيال!

ولقد كان الإسلام يقدر هذا كله، وهو يشير بالحشمة، ويتحرج من الاختلاط، ويأمر بغض الأبصار، ويحرم التبرج. لقد كان يريد للضمائر أن تقر، وللأرواح أن تطمئن، وللبيوت أن تهدأ. لقد كان يريد السلام للعش الذى ليس ملكًا للزوج وليس ملكًا للزوجة، فهما فيه راعيان للفراخ الزغب، أمينان على الطفولة النابتة، حارسان للحياة المتفتحة فى مثابة الأمان.

الحـــــدود

وإن الإسلام ليكره أن تشيع الفاحشة فى المجتمع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

يُحبُّونَ أن تَشيعَ الْفاحشةُ في الَّذين آمنُوا لهُمْ عذابٌ أليمٌ﴾ (سورة النور الآية: ١٩).. ﴿ولا تقْربُوا الزِّنَىٰ إنَّهُ كان فاحشةً وساء سبيلاً﴾ (سورة الإسراء الآية: ٣٢).. ولشيوع الفاحشة أثره الفاحش فى تحطيم أسس المجتمع، ولكن الذى يعنينا فى هذا الموضع أثره فى أمن البيت وسلامه، وحرص الإسلام على هذا السلام.

إنه يبدأ بأسباب الوقاية على نحو ما أسلفنا: يأمر بالحشمة ويحرم التبرج، ويتحرج من الاختلاط، ويحاول تيسير الإحصان بالزواج عند الاستطاعة، حتى ليدعو المسلمين إلى مساعدة من يبتغى الزواج بالمال. فإذا تعذر فهو يدعو إلى الصوم تلطيفًا لفورة الجسد: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1]. وهو يحبب فى الرياضة والفروسية ملاحظًا هذا المعنى بجانب غايات الفروسية الأخرى..

وما من شك فى أن التربية الإسلامية المعتدلة المتناسقة، وتوقى مواضع الإثارة وأسباب الفتنة بتحريم التبرج، والتطرى فى الحديث: والتحرج من الاختلاط فى غير ضرورة قاهرة، مع أخذ الجسم بالرياضة وبالصوم، والتبكير بالزواج بمجرد الاستطاعة.. ما من شك فى أن هذه كلها عوامل إيجابية فى ضبط النفس والجسد إلى حين.

---

(١) البخارى.

والببغاوات هنا والشاردون هناك يقولون: إن هذا الضبط لابد مؤدّ إلى «العقد النفسية»، ذلك أنهم لا يتخيلون صورة للمجتمع إلا تلك الصورة القذرة، صورة الشبان الهائجين محتكين بالفتيات الفائرات. صورة الأفخاذ والنهود عارية بارزة. صورة النظرات جاهرة فى العيون والشهوات ناضحة فى الشفاه. تدفعها كلها وتؤججها مناظر الأفلام الداعرة، وصور الصحف المجرمة، وأصوات المخنثين والمخنثات فى الإذاعة، والتوجيهات الخبيثة فى كل أجهزة التوجيه والإعلام العامة، ومن وراء ذلك كله الترف والفراغ فى جانب، والعوز والانحلال فى جانب. ومن حول ذلك كله تجار الأعراض ومخانيث القوادين!

. . إن مجتمعًا هذه صورته ليتعذر فيه الضبط، لأن عوامل الفتنة كلها فيه هائجة صاخبة جامحة طليقة. وإن مجتمعًا هذه صورته ليعز فيه على النفوس القرار، ويعز فيه على البيوت السلام. ولكن المجتمع الإسلامى شىء مغاير لهذا كله من الأساس. إنه مجتمع يحارب العوز ويسده، ويحارب الاختلاط والتبرّج، ويحارب التخنث والتأنث، وتشتغل أجهزة التوجيه والإعلام فيه بتوجيه الناس إلى الخير والفضيلة، والنظافة والعفة، وتقوى الله ومراقبته، وتعبيدهم كذلك لله وحده! وهو بعد ذلك كله يملأ فراغ الحياة بهموم كبار فى سبيل الله وفى سبيل الإنسانية، ويملأ فراغ الوقت بالعمل، فلا يوجد فيه أولئك الفارغون والفارغات الذين لا يجدون ما يملئون به حياتهم، ويصرفون فيه طاقتهم، إلا الشهوات والنزوات، وإلا الترف الفاجر الداعر فى

الحفلات والسهرات والرحلات والمعسكرات المختلطة ومضايقة طلاب اللذائذ والمتع من السائحين والسائحات!

إن الإسلام لا يدع كئوس الخمر تهيج الدم فى العروق، ونهود الخليعات وشفاههن الظامئة ونظراتهن الفاجرة تهتف بالرجال ثم يكلف الرجال أن يضبطوا نزواتهم ويكبحوا شهواتهم! . . كلا. إنه يأخذ الأمر من أطرافه جميعًا، ويأخذ على أسباب الفتنة الطريق منذ الخطوة الأولى، ثم يكلف الناس ما فى طوقهم حينذاك، بدون مشقة وبدون إعنات.

فإذا وقعت الفاحشة بعد ذلك، ففى سبيل سلام البيت وفى سبيل تماسك المجتمع يأخذ الأمر بعقوبات رادعة يوقعها على الفاحشين والفاحشين: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة النور الآيتان: ٢، ٣). وقد عاقب النبى ﷺ بالرجم للمحصن والمحصنة لا بالجلد، وعاقب به الخلفاء بعده.

وتسمع من البغاوات هنا ومن الشاردين هناك أنها عقوبة قاسية. أما تحطيم البيوت، وقلق الضمائر، وتدليس الأنساب، فما هى بقاسية. قاسية لأن المترفين والمترفات، والداعرين والداعرات، يحسون - وهم يصفونها بالقسوة - وقع السياط على

جلودهم الناعمة المترهلة، ونفخ الأحجار فى أجسادهم اللينة الرخصة. إنه يدفعون عن أنفسهم وهم يتشدقون باسم القوانين المتحضرة، وينعتون حدود الإسلام بالقسوة أو بالهمجية. وهم الهمج المتكسون إلى حياة البهيمية الأولى.

والإسلام مع ذلك لا يقضى بهذه العقوبة الرادعة إلا فى حالات التأكد المطلق الذى لا شبهة فيه، وفى حالات الإحصان بالزواج حيث تنتفى الحاجة القاهرة، أما غير المحصنين وغير المحصنات فعقوبتهم أخف وليست تتجاوز الجلد.

والنبى ﷺ يقول: إدرءوا الحدود بالشبهات»[1] لأن الجريمة التى تقوم عليها شبهة، ليست هى الجريمة الواضحة الظاهرة المتبجحة، وهى أولى بالعطف والتخفيف، وفى التعزير ما يكفى لغير المجرم المتبجح بجريمته حتى ليراها الشهود ـ وهم فى حالة الزنا أربعة ـ يتأكدون جميعًا من وقوع الفعل بلا شك فى نفس واحد منهم، ولا مطعن فى عدالته. وإلا فلا رجم ولا جلد.

وإذا عرفنا أن التجسس وتسور الأبواب واقتحام البيوت الخاصة ممنوع، فإن ضبط هذه الجريمة ورؤية الشهود لها على الوضع الذى يشترطه الإسلام لإقامة الحد، لا يكون غالبًا إلا فى حالات التهتك الفاضحة، والتبجح بالجريمة فى الأماكن العامة. وتلك إشاعة للفحش واستهتار بالكرامة والعرض، لا توصف معهما العقوبة بالقسوة عند ذوى الفطر المستقيمة والطباع السليمة.

---

(١) فى مسند أبى حنيفة للحارثى.

ومنعًا لشيوع الاتهام بالحق وبالباطل يعاقب الإسلام بالجلد وبالحرمان من الثقة وبإسقاط الشهادة كل من يرمى امرأة محصنة أو رجلا محصنًا ـ بالتهمة ولا يأتى بشهود أربعة : ﴿ والَّذين يرْمُون الْمُحْصنات ثُمَّ لمْ يأْتُوا بأرْبعة شُهداء فاجْلدُوهُمْ ثمانين جلْدةً ولا تقْبلُوا لهُمْ شهادةً أبدًا وأُولئك هُمُ الْفاسقُون (٤) إلاَّ الَّذين تابُوا منْ بعْد ذلك وأصْلحُوا فإنَّ اللَّه غفُورٌ رَّحيمٌ ﴾ (سورة النور الآيتان : ٤ ، ٥) وذلك كى لا يشيع الاتهام ويشيع القلق فى النفوس والبيوت، وتشيع قالة السوء فى المجتمع، فتفقد الثقة، ويحل مكانها التشكك والخوف : ﴿ لا يُحبُّ اللَّهُ الْجهْر بالسُّوء من الْقوْل إلاَّ من ظُلم وكان اللَّهُ سميعًا عليمًا ﴾ (سورة النساء الآية : ١٤٨).

فإذا جاءت التهمة على لسان زوج، ولم يكن له شهود، فإن الإسلام يقدر ظروف البيوت وتعذر الشهود، فيعفيه من العقوبة إذا هو شهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. وشهادة خامسة بأن يلعنه الله إن كان من الكاذبين. ويقيها هى من العقاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وشهادة خامسة بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ويفرق بينهما بهذه «الملاعنة» حيث لا تستقيم الحياة بعد ذلك : ﴿ والَّذين يرْمُون أزْواجهُمْ ولمْ يكُن لَّهُمْ شُهداءُ إلاَّ أنفُسُهُمْ فشهادةُ أحدهمْ أرْبعُ شهادات باللَّه إنَّهُ لمن الصَّادقين (٦) والْخامسةُ أنَّ لعْنت اللَّه عليْه إن كان من الْكاذبين (٧) ويدْرأُ عنْها الْعذاب أن تشْهد أرْبع شهادات باللَّه إنَّهُ لمن

الْكاذبينَ (٨) والْخامسة أنَّ غضب الله عليْها إن كان من الصَّادقين﴾ (سورة النور الآيات: ٦-٩).

الطـــلاق

والطلاق؟ إنه صمام الأمن فى هذه الخلية. إنه أبغض الحلال إلى الله ولكنه مكروه تبيحه الضرورة، تحقيقًا للسلام الحقيقى فى جو البيت حين يعزّ السلام عن كل طريق سواه. وإنه لاعتراف بالمنطق الواقع الذى لا تجدى فى إنكاره حذلقات المتحذلقين، ولا تدفع وجوده كذلك أحلام الشعراء. إن هنالك حالات واقعية تتعذر فيها الحياة الزوجية، فإمساك الزوجين على هذا الرباط مرغمين لا يؤدى إلى خير، ولا ينتهى إلى سلام.

والإسلام لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدس فيفصمه لأول وهلة، ولأول بادرة من خلاف. إنه يشد على هذا الرباط بقوة، ويستمسك به فى استماتة، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس والمحال.

إنه يهتف بالرجال: ﴿**وعاشرُوهُنَّ بالْمعْرُوف فإن كرهْتُمُوهُنَّ فعسىٰ أن تكْرهُوا شيْئًا ويجْعل اللَّهُ فيه خيْرًا كثيرًا**﴾ (سورة النساء الآية: ١٩).. فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى فى حالة الكراهية، ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة: ﴿**فعسىٰ أن تكْرهُوا شيْئًا ويجْعل اللَّهُ فيه خيْرًا كثيرًا**﴾.. فما يدريهم أن فى هؤلاء النسوة المكروهات خيرًا. وأن الله يدخر لهم هذا الخير فلا يجوز أن

يفلتوه، إن لم يكن ينبغي لهم أن يستمسكوا به ويعزوه! وليس أبلغ من هذا في استحياء الانعطاف الوجداني واستثارته، وترويض الكره وإطفاء شرته.

فإذا تجاوز الأمر مسألة الكره والحب إلى النشوز والنفور، فليس الطلاق أول خاطر يهدى إليه الإسلام، بل لابد من محاولة يقوم بها الآخرون، وتوفيق يحاوله الخيرون: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (سورة النساء الآية: ٣٥).

فإذا لم تجد هذه الوساطة، فالأمر إذن جد، وهنالك ما لا تستقيم معه هذه الحياة، ولا يستقر لها قرار. وإمساك الزوجين على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة، يزيدها الضغط فشلاً. ومن الحكمة التسليم بالواقع، وإنهاء هذه الحياة على كره من الإسلام، فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق. ولعل هذه التفرقة تثير في نفس الزوجين رغبة جديدة لمعاودة الحياة، فكثيراً ما نتفقد الشيء بعد أن نفقده، ونرى حسناته عندما نحرمه. والفرصة لم تضع: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٢٩).. على أن الطلاق يجب ألا يقع في فترة الحيض. بل ينبغي أن يقع في طهر لم يكن فيه وطء. وهذه مهلة يمد فيها الإسلام، عسى أن يسكن الغضب إن كان هو الذي يوحي بالطلاق.. ثم هناك فترة العدة في حالة الدخول بالزوجة، بعد الطلاق الأول، ثلاثة أشهر على وجه التقريب إن لم يكن

هناك حمل، وحتى الوضع إن كان وعليه أن ينفق عليها فى هذه الفترة ولا يقتر فى النفقة. وفى خلالها يجوز له إن كان قد ندم أن يراجع زوجه، وأن يستأنفا حياتهما بلا أى إجراء جديد. فهو طلاق رجعى، والحياة الزوجية قابلة للاستئناف بأيسر الأسباب.

فإذا تركت مدة العدة تمضى دون مراجعة، صار الطلاق بائنًا. ولكن الفرصة بعد لم تضع، وفى استطاعتهما أن يستأنفا هذه الحياة متى رغبا، ولكن بعقد جديد.

وتلك هى التجربة الأولى، وهى تكشف لكلا الزوجين عن حقيقة عواطفهما، وعن جدية الأسباب التى انفصلا بسببها. فإذا تكررت هذه الأسباب أو جدّ سواها، ولندفع الزوج إلى الطلاق مرة أخرى، فعندئذ لا تبقى سوى فرصة واحدة، هى الثالثة. وفى الثانية نذير. فإذا وجدا أن الحياة مستطاعة من جديد، وإذا كشفا فى مشاعرهما عن بقية من ود، أو عن دفين من حب، عاودا هذه الحياة.

فأما إذا كانت الثالثة، فالعلة إذن عميقة، والمحاولة غير مجدية. ومن الخير له ولها أن يجرب كل منهما طريقه؛ ومن الخير كذلك أن يتلقى الزوج إن كان عابثًا أو متسرعًا نتيجة عبثه أو تسرعه: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٣٠).. لا على طريقة «المحلل» الشائعة، والتى لا يعترف بها الإسلام، ولا تقرها شريعته. ولكن على أن تتزوج زواجًا حقيقيًا جديدًا، منويًا فيه التأبيد لا التوقيت. فإذا حدث لأمر ما أن طلقت من زوجها الجديد أو مات عنها، فلزوجها

الأول أن يتزوجها من جديد. وأن يستأنفا معًا رحلتهما في الحياة.

ولا يجوز أن ننسى في هذا المجال توصيات الإسلام في كل خطوة وفي كل مرحلة بحسن المعاملة وتوفية النفقة، تأليفًا للقلوب النافرة في فترة العدة، فقد يعود إليها ودها، وتجبر شعوبها، وتستأنف الحياة صافية من جديد: ﴿ وإذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٣١).. ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (سورة الطلاق الآيتان: ١ ـ ٣).

ثم لا يجوز أن ننسى كذلك أن للمرأة أن تشرط أن تكون العصمة بيدها، فيكون لها من الحق ما للرجل في هذا المجال عند الاقتضاء.

ذلك هو الطلاق في الإسلام.. صمامة أمن لا تنطلق إلا حيث لا يكون مفر من انطلاقها، ومحاولة بعد محاولة في التوقي

والاستصلاح والمراجعة، وفرصة بعد فرصة تكشف للزوجين عن حقيقة مشاعرهما، وعن أخطائهما فى السلوك أو أخطائهما فى التقدير، أو أخطائهما فى الشعور.

ففيم إذن تلهج حناجر عابثة جاهلة بنقد هذا النظام أو عيبه أو تشويهه؟ يقولون: إنه نظام يدع المرأة دائمًا مهددة بكلمة تخرج من شفتى رجل!

أهو كذلك فى حقيقته الإسلامية؟ أم إنه صار كذلك بانفلات القلوب من عروة الإسلام، وانفلات المجتمع من نظام الإسلام، وانفلات الحكم من يد الإسلام؟

إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق. وإنه لمكروه تبيحه الضرورة. فإذا فسدت القلوب، وانحلت الأخلاق، ورخصت الروابط، وفشا الاستهتار، فالمجتمع الفاسد هو المسؤول لا ذلك النظام البصير الحكيم. والعلاج لا يكون بتقييد المباح وتحريم الحلال، ولكن يكون برد الحكم والتنظيم والتربية إلى الإسلام، وعندئذ يصوغ الإسلام المجتمع كله وفق تعاليمه. فتشريعات الإسلام مشروعة لمجتمع يحكمه الإسلام، ولنظام يقوم على الإسلام، ولضمير رباه الإسلام.

دعوا الإسلام يحكم، فيربى النفوس، ويوقظ الضمائر، ويضرب على أيدى العابثين والمستهترين، ويحقق إرادة الإسلام كلها ومن بينها شرائع الإسلام.

على أننى أفترض أن قد تم تقييد الطلاق، فى مجتمع

كمجتمعنا الزائغ المريض. فما الذى تبتغيه المرأة بنفسها وبكرامتها؟ أفتريد أن يلفظها الرجل من قلبه فيمسكها القانون عليه؟! أفتريد أن يعبث بطلاقها فلا تطلق، وتبقى على العبث بها مقحمة فى الدار؟ أى كرامة تلك التى يريدها للمرأة نساء فارغات عابثات، أراد الله لهن الكرامة فأبينها وانطلقن شاردات رخيصات؟!

إن الزواج رابطة مقدسة، لا تقوم إلا على الرضا والقبول، ولا تستمر إلا بالرضا والقبول. ونظام الطلاق هو الكفيل ببقائها قائمة على أصولها الكريمة. فإذا انفصمت عراها بعد هذا كله، فمعنى انفصامها أنها غير صالحة للبقاء، وأنه خير للزوجين حينئذ وأكرم أن يركنا إلى حياة أخرى جديدة: ﴿ **وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً** ﴾ (سورة النساء الآية: ١٣٠).

تعدد الزوجات

ورخصة تعدد الزوجات. إنها هى الأخرى ضرورة تؤدى وظيفة صمام الأمن فى مجالها كضرورة الطلاق عند الاقتضاء. وهى فى الإسلام وقاية اجتماعية بحتة، يتقى بها أخطاراً أكبر من مزاج الأفراد، ومن رغبات الزوجات والأزواج.

ولقد كان موضع الحديث عن هذه الرخصة هو فصل الحديث عن «سلام المجتمع» لأنها ألصق به، وأدخل فيه، ولكنها ليست غريبة عن فصل «سلام البيت» الذى نحن فيه، فالفرد والبيت

والمجتمع والإنسانية كلها متداخلة متعاونة متناسقة، فى الواقع، وفى نظر الإسلام للحياة.

إن ثرثرة طويلة عريضة تتناثر حول حكاية تعدد الزوجات فى الإسلام، فهل هى حقيقة تلك الآفة الخطرة فى حياة المجتمع؟ بل هل يمكن أن تصبح آفة خطرة فى يوم من الأيام؟ وهل تحتاج إلى تشريع يناقض أو يقيد تلك الرخصة التى جاء بها الإسلام؟

إننى أنظر فأرى كل مشكلة اجتماعية قد تحتاج إلى تدخل من التشريع بالتعديل أو التقييد، إلا مسألة تعدد الزوجات، فإنها تحل نفسها بنفسها، ولا توجد إلا حيثما كان المجتمع فى حاجة إليها، وتسمح أوضاعه وضروراته بها.

إنها مسألة تتحكم فيها الأرقام ولا تتحكم فيه النظريات ولا التشريعات، ولست أدرى كيف جاز أن تلوكها الألسن، ولا كيف أصبحت مجالا للأخذ والرد والنقاش. إلا أن يكون الهدف الكامن من وراء لوكها فى الأفواه وفى الصحف وفى أجهزة التوجيه والإعلام الأخرى، هو غمز هذا الدين فى خبث مقصود، تبريرًا لإقصائه عن نظام الحياة. ولإحلال نظم أخرى رديئة محله بطرق ملتوية ليست لها حتى شجاعة الكفر الملحد الذى أعلنه من قبل مصطفى كمال!

إن فى كل أمة رجالاً ونساء. ومتى توازن عدد الرجال الصالحين للزواج، المستعدين له، المقبلين عليه، وعدد النساء الصالحات للزواج، الراغبات فيه، فإنه يتعذر عمليًا أن يحصل رجل واحد على أكثر من امرأة واحدة.. لأن الأرقام هنا هى التى تتحكم!

إن معنى استطاعة رجل ما أن يحصل على امرأة أخرى . . هو أن هناك امرأة زائدة لا تجد رجلاً يقابلها . ويستوى أن يكون هذا الرجل غير موجود حقيقة أو حكما . أى أن يكون عدد النساء فى سن الزواج أكثر عدديًا من عدد الرجال فى الأمة ، أو يكون أكثر من عدد الرجال الصالحين للزواج أو القادرين عليه من جميع الوجوه ، أو الراغبين فيه على فرض استطاعتهم له .

فإذا لم يزد عدد النساء الصالحات للزواج حقيقة أو حكمًا على عدد الرجال تعذر كما قلت أن يجد أكثر من زوجة حتى لو أراد ، وحلت المسألة نفسها بنفسها عن طريق الأرقام!

فأما حين يختل توازن الأمة ، فيقل عدد الرجال الصالحين للزواج عن عدد النساء ، سواء كانت هذه القلة من ناحية العدد كما يقع بعد الحروب والأوبئة التى يتعرض لها الرجال أكثر مما يتعرض النساء أو لأى سبب آخر ، أو كانت من ناحية عدم القدرة على الزواج لأسباب اقتصادية أو عائلية أو اجتماعية عامة . . فهنا فقط يوجد مجال لأن يستطيع رجل تعديد زوجاته .

فلننظر إذن فى هذه الحالة ، وأقرب الأمثلة لها ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث كانت هناك ثلاث فتيات فى سن الزواج مقابل كل شاب فى هذه السن (ما بين سن ٢٠ وسن ٤٥) . . إنها حالة اختلال اجتماعى واضحة ، فكيف يواجهها المشرع الذى يعمل لحساب المجتمع ولحساب المرأة والرجل ولحساب النفس الإنسانية جميعًا؟

إن هنالك حلا من حلول ثلاثة :

الحل الأول: أن يتزوج كل رجل امرأة، وتبقى اثنتان لا تعرفان فى حياتهما رجلا، ولا بيتًا، ولا طفلاً، ولا أسرة..

الحل الثانى: أن يتزوج كل رجل امرأة فيعاشرها معاشرة زوجية، وأن يختلف إلى الأخريين لتعرفا فى حياتهما الرجل، دون أن تعرفا البيت أو الطفل أو الأسرة. فإذا عرفتا الطفل تلبية لنوازعهما الأنثوية العميقة عرفتاه عن طريق الجريمة، وعرفتاه متهمًا مشبوهًا، ليس له والد معروف، وحملتا نفسيهما وحملت الأطفال الأبرياء ذلك العار وذلك الضياع!

الحل الثالث: أن يتزوج هذا الرجل أكثر من امرأة، فيرفعها إلى شرف الزوجية، وأمان البيت، وضمانة الأسرة، وتأمين الطفولة. ويرفع ضميره عن لوثة الجريمة، وقلق الإثم، وعذاب الضمير. ويرفع المجتمع عن لوثة الفوضى واختلاط الأنساب، وقذارة الفحشاء. ويمنح الأمة فرصة التعويض عن هذا الاختلال بنسل جديد يتم فيه التوازن بعد الحروب والأوبئة التى تنشئ هذا الاختلال.

أى الحلول فى هذه الحالة أليق بالإنسانية، وأحق بالرجولة، وأكرم للمرأة ذاتها وأنفع؟

إنه موقف لا اختيار فيه. فإما هذا وإما هذا وإما هذا، ولا مجال لعواطف الشعراء، أو رغبات الأفراد، أو الثرثرة الجوفاء. إنها ضرورة اجتماعية وضرورة روحية وضرورة حيوية، ومواجهتها ينبغى أن تكون فى الحدود العملية الواقعية، لا بالخيالات والأحلام.. ولقد بحثت ألمانيا النصرانية التى يحرم

دينها التعدد . . بحثت عن الحل المناسب فلم تجد خيرة إلا ما اختاره الإسلام، وهى لا تدين بالإسلام! وطالبت المرأة فيها بتعدد الزوجات، ولم يجئ هذا الطلب من الرجال.

لقد يقول قائل: إن المرأة الآن قادرة على العمل، فهى قادرة على الحياة بلا رجال!

وأكذب الكذب على الطبيعة والفطرة والواقع أن يقال هذا الكلام. فحاجة المرأة إلى الرجل، كحاجة الرجل إلى المرأة، ليست محصورة كلها فى الطعام، بل ليست محصورة كلها فى مطالب الجسد. وإن كانت هذه لا يغنى عنها المال ولا الطعام أو الشراب. إن هنالك لحاجة نفسية عميقة فى كيان كل امرأة أن تجد رجلا. إنها حاجتها، إلى التكامل. . أعمق الحاجات. . وليس شعور الرجل بعيدًا عن هذا كذلك؛ فهى الفطرة التى قام على أساسها نظام «الزوجية» فى الأحياء وفى الأشياء سواء! مما يبطل خرافة العامل الاقتصادى الذى يفسر به بعض السطحيين من أصحاب المذاهب المادية شعور المرأة بحاجتها إلى الرجل ليعولها. فالرجل لا تعوله المرأة ولكنه لا يحس فرحًا ولا نشاطًا ولا اعتزازًا كما يحس وامرأة تعجب به. ولا يحس أنسًا وطمأنينة وسكينة كما يحس مع شطر النفس الآخر. إنها الإرادة العليا التى أودعت نفس الجنسين هذه الحاجة لتبنى منهما الحياة، ولتدفعهما إلى التعمير والإنشاء والنماء.

وإذن فما دامت فى هذه الأرض ظروف يقل فيها التوازن بين عدد الجنسين أو ينعدم، فأكرم حل، وأشرف علاج، وأسلم

وقاية، هى تلك الرخصة التى سنها الإسلام، ووكلها إلى الأرقام، وتركها تحل نفسها بنفسها، لأنها لا توجد إلا وهناك من صميم الواقع العددى ما يدعو إلى وجودها، فإذا لم يوجد دافع الأرقام، فلن يكون لها وجود ولو أرادها الإنسان!

وإنى لأتقدم إلى الثرثارين عندنا والثرثارات، الذين يلغطون وهم لا يدركون البديهيات. . أتقدم إليهم أسألهم: ترى هل حدث فى يوم من الأيام أن شابّا مصريّا أراد الزواج، فلم يتمكن من العثور على فتاة بسبب أن هناك رجلا آخر طماعًا أو شهوانًا أو مترفًا، قد حصل على أكثر من زوجة، فحرم زميله من الحصول على زوجة، لأنه لا يوجد وفر فى الفتيات؟!

نعم! إننى أعرف حالات كانت النزوة الطارئة، أو كان الثراء المفاجئ، أو كان الحيوان الشهوان. . سببًا لا سبب سواه لأن يتطلع الرجل إلى تعدد الزوجات - وللإسلام فى هذه الحالة وجهة سنكشف فيما بعد عنها - ولكننى أسأل: أو قد اغتصب ذلك الرجل امرأة من بين يدى رجل، أم أنه وجد فى المجتمع امرأة متعطلة لا يقابلها رجل؟ إنه لو لم يجد هذه المرأة المتعطلة ما استطاع أن يلبى الحيوان الشهوان ولا النزوة الطارئة، ولا حموة الثراء المفاجئ، عن طريق الزواج. . أفى هذا جدال؟

هنا يقال: إن العوامل الاقتصادية وغيرها من العوامل الاجتماعية تؤثر فى منح بعض الرجال قدرة فائقة على الحصول على أكثر من امرأة، وتحرم الآخرين هذه الفرصة. فوجود نساء متعطلات ليس دليلا على نقص حقيقى فى عدد الرجال، ولكن

على نقص فى المقدرة الاقتصادية والاجتماعية لبعض الرجال.

وهذا صحيح. ولكن علاجه ينبغى أن يتجه إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى تنشىء هذا الاختلال فى جسم المجتمع لا إلى علاج عرضى بتقييد حق الزواج، لا يصل إلى مكمن الداء.

ولو ترك الأمر للإسلام لما ترك هذا الاختلال الاجتماعى وهذا التخلخل الاقتصادى، لأنه بطبيعته يحقق التناسق والتوازن فى المجتمع فى كل اتجاه، ويعطى الضمانات الكافية لجميع الشركاء. ومن هذه الضمانات أن تشترط الزوجة ألا يضارها الزوج بأخرى، فيكون لها شرطها أو تطلب الطلاق.

فالإسلام يعالج الأمر جملة، فتعدل الجزئيات نفسها بنفسها؛ ولا يعالج الموقف أجزاء وتفاريق بحلول ضيقة الأفق لا تمتد إلى أبعد من مواضع القدمين، كما يريد الجاهلون الثرثارون والجاهلات الثرثارات!

ولا يغفل الإسلام عن أن هنالك طبائع غير عادية فى الرجال لا تكتفى بواحدة، ولابد أن تتطلع إلى أخرى وأخرى. فإن لم تتيسر لها هذه الأخرى فى عالم الزواج المعلن الشريف، وجدتها فى عالم الدعارة على نحو من الأنحاء. وبذلك يتفزع المجتمع، كما تتفزع الزوجة ويتفزع البيت، وتعمره الشكوك والظنون، ويطير من جوه الأمن والسلام.

أفليس من باب الاحتياط الواقى أن نفسح لمثل هذه الطبائع

المجال فى دائرة الزواج المنظم الشريف، بدل أن ندعها تتلصص وتتدسس، وتدنس نفسها وتدنس سواها، وتشيع الفاحشة بين الناس. كما وقع فى أوربا التى حرمت التعدد الشريف، لتواجه التعدد المدنس فى كل ركن وفى كل اتجاه؟

ولقد كان الإسلام حريًا بأن يهمل مثل هذه الرغبات، وأن يتلقاها بالكبح والعقوبة حتى تقتصر على واحدة، أو تهلك إذا هلكت! لو لا أن مثل هذه الرغبات تقابلها فى واقع الحياة حالات اختلال فى التوازن بين عدد الرجال وعدد النساء. والأمر فى النهاية متروك إلى الأرقام كما أسلفنا، وهى الحكم فى الأمر، بلا تحديد ولا تقييد!

وقد يقال من باب الجدل هنا: وما دام الأمر كذلك فلم إذن وضع الإسلام حدًا أعلى لتعدد الزوجات؟ ولِمَ لم يترك ذلك لطبيعة الحياة ولحكم الأرقام؟

وهو مجرد اعتراض جدلى، وإلا فلنتذكر أن هذه الرخصة ضرورة فى اعتبار الإسلام، ومواضع الضرورة مقصورة على الحاجة. وأقصى الحاجة هو الأربع؛ لأن الاختلال لا يزيد عادة على هذا الحد، بل قلما يبلغه. ولأن التحديد يشعر بأن الطلاق كان لضرورة ولم يكن هو القاعدة. وقد جاءت الرخصة مع ذلك مقيدة بشرط العدل الممكن: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ (سورة النساء الآية: ٣).

والعدل هنا هو العدل فى الإنفاق، والعدل فى الرعاية، والعدل فى الكفاية بكل جوانبها مالية وجسدية ونفسية. فأما

العاطفة القلبية الشخصية التى لا تؤثر فى مظاهر الحياة، فالعدل فيها ليس فى يد البشر، وكل ما يطلب فيها ألا يظهر الميل، فتكون الأخرى كالمعلقة: ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ (سورة النساء الآية: ١٢٩).

والذين ينظرون إلى الأمر من زاوية واحدة يخطئون. فقد تضار الزوجة الأولى، ولكن هذه الزوجة لن تكون منصفة حتى تضع نفسها فى موضع الأخرى التى كانت معطلة. أفلو كانت هى أما كانت تقبل الرجل الذى يتقدم إليها ليضمها إليه زوجة شريفة كريمة، لا خليلة متهمة مدنسة؟ كذلك يجب أن نلحظ ظروفاً كثيرة أخرى: ظروف الزوجة المريضة التى لا يريد رجلها طلاقها ولا تستقيم معها الحياة، والزوجة العاقر العزيزة على الرفيق.. وهكذا وهكذا.

ولقد أراد الإسلام السلام بهذه الرخصة، وأراد تنسيق الحياة بكل ظروفها وملابساتها، ووضع فى حسابه أشواقها وضروراتها، ووازن بين الأضرار والآلام؛ فاختار أخفها وأكرمها، فأما الفارغون والفارغات فليسوا فى حساب الإسلام، أكثر جدية من ثرثرة الفارغين والفارغات.

التكافل العائلى

ثم نتجاوز شخص الزوج وشخص الزوجة، لنجد الإسلام

يعنى بأمن الأسرة التى يضمها البيت جميعًا، وينظم العلاقات بينها جميعًا، ويقرر التكافل بينها جميعًا. وفى التكافل حقوق وواجبات، ومزايا وتكاليف، تنتهى كلها إلى ثقة متبادلة، واطمئنان إلى الحياة والمستقبل، وشعور بالأمن فيها والقرار.

إن عاطفة الأمومة وحدها تكفى فى رعاية الوليد؛ وإن عاطفة الأبوة وحدها تكفى فى النهوض له وللأم بالنفقة، ولكن الإسلام يضيف إلى العاطفة الفطرية التكليف الصريح. شأنه فى ذلك شأنه فى كل جوانب الحياة. إنه يبث العقيدة ويستشير الوجدان، ولكنه لا يدع التكاليف غامضة مبهمة، ولا يكلها لمجرد الوجدان والعاطفة. وإنما يحددها بالنص ويؤيدها بالتشريع. وكذلك يفعل فى حق الطفولة: ﴿ولا تقْتُلُوا أَوْلادكُمْ خشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كبيرًا﴾ (سورة الإسراء الآية: ٣١).

﴿وَالْوالدَاتُ يُرْضعْنَ أَوْلادهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٣٣).

فأما الوالدان فلهما حقهما المقابل. وفى الإسلام كل حق يقابله واجب. يزيد عليه ما يناسب الأبوة والأمومة من احترام وطاعة وأدب، ومن رفق فى حالة كبرتهما وعطف. وإن الألفاظ التى يعبر بها القرآن عن هذه المعانى لتسيل انعطافًا ورقة وشفافية: ﴿وقضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ

الْكِبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (سورة الإسراء الآيتان: ٢٣، ٢٤).. وللوالدة بقدر ما تعبت وبقدر ما عطفت: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (سورة لقمان الآية: ١٤).. ولابد من لفتة فى الآيتين إلى اقتران الإحسان للوالدين بعبادة الله فى الأولى، واقتران الشكر للوالدين بالشكر لله فى الثانية، ففى هذا الاقتران إيحاء ظاهر المعنى لا يخفى.

وينسحب هذا التكافل بين أفراد الأسرة جميعًا: يقوم بالتكاليف أقرب عاصب، ثم من يليه، حتى يأتى دور ذوى الأرحام. ويرث كذلك أقرب عاصب، فالذى يليه، على ذات النظام. لكى يكون هنالك نوع من التأمين الاجتماعى فى داخل الأسرة. وذلك غير الضمانات الاجتماعية المفروضة على الجماعة وعلى الدولة. وسيأتى الحديث عنها فى حينه.

هذا التكافل العائلى الواسع النطاق ـ مضافًا إلى ما أسلفنا من النظم الإسلامية لشؤون البيت ـ دعائم للسلام والأمان فى مثابة البيت. وشعار الإسلام فى هذا هو ذلك الذى قدمناه فى أول الفصل: «الفرد الذى لا يستمتع فى بيته بالسلام، لن يعرف للسلام قيمة، ولن يتذوق له طعمًا، ولن يكون عامل سلام، وفى أعصابه معركة، وفى نفسه قلق، وفى روحه اضطراب».

ســـلام المجتمـــع

فى المجتمع تتشابك المصالح، وتتزاحم الدوافع. ويكثر الشد والجذب، ويتكرر الأخذ والعطاء. وفى المجتمع يتبادل الأفراد، وتتعامل الجماعات، وتتفاعل القوى، وتتنافس المقدرات. وفى المجتمع يندمج الفرد، ويندمج البيت، وتندمج الأسرة، ويحف بها جميعًا ذلك السياج الضخم الذى يشمل نشاطها جميعًا، ويمثل اتجاهاتها جميعًا، ويؤثر فيها ويتأثر بها فى كل اتجاه.

وعندما يفرض بعض المذاهب الاجتماعية أن العلاقة بين الفرد والفرد هى أبدًا علاقة الصراع والخصومة، وأن العلاقة بين الأفراد والسلطات هى أبدًا علاقة الكبت والإجبار. يقرر الإسلام أن العلاقة بينهم جميعًا - فى المجتمع المسلم - هى علاقة الود والرحمة، وعلاقة التضامن والتعاون، وعلاقة الأمن والسلام. ويقرر أن القاعدة التى تقوم عليها حياتهم هى قاعدة التناسق بين الحقوق والواجبات، والتعادل بين المغانم والمغارم، والتوازن بين الجهد والجزاء. ويقرر أن الغاية المقدرة لهم جميعًا هى امتداد

الحياة، وإنما الحياة، وترقية الحياة والتوجه بكل نشاط فيها وبكل نية وكل عمل إلى الله خالق الكون والحياة.

ومن ثم ينتهى كل نشاط فردى، وكل نشاط اجتماعى، كما ينتهى كل تنظيم وكل إنتاج، إلى السلام الكلى، الذى ينسق بين مختلف النوازع والاتجاهات، ومختلف القوى والطاقات، ومختلف الأفراد والجماعات. لأن هنالك أفقًا أعلى من أفق المصالح الوقتية التى تثير الشحناء، وتؤجج العداوات.

إن المذاهب الغربية منطقية مع البيئة التى نشأت فيها. بيئة الحضارة الغربية المادية، التى تنفى من الحياة كل هدف أبعد من هدف المصلحة المباشرة القريبة، وتنفى عن الإنسانية عنصر التطلع إلى ما هو أبعد من الذات. فحين تحكم الحياة كلها هذه الفكرة المادية لا يكون هنالك مجال لغير الصراع القاسى بين الطبقات فى المجتمع، ولا يكون هنالك مجال لغير قوانين العمل وظروف الإنتاج، ومن ثم تصبح مسألة «صراع الطبقات» حقيقة مادية واقعة لا فكاك منها، ولا أمل فى اجتنابها، ولا سبيل كذلك لتجاهلها.

فأما حين يحكم الحياة منهج كالمنهج الإسلامى. وحين يأخذ نظام الإسلام الاجتماعى سبيله إلى التنفيذ العملى. وحين يصبح القانون الإسلامى نافذًا كما أراده الله لا كما يفسره المحرفون من رجال الدين. عندئذ تصبح «الجبرية المادية» كما تصبح «حتمية صراع الطبقات» مسألة تحكمية لا تستند إلى واقع ولا منطق، لأنها تحكم على بيئة أخرى، ونظام آخر، حكمًا

مستمداً من بيئة معينة تحكمها الأفكار المادية، وتنفى منها فكرة الأهداف العليا للحياة.

إن الإسلام لا يقيم هذا السلام الشامل على حساب الفرد أو حساب الجماعة، ولا يقيمه على أساس من مصلحة طبقة ضد طبقة، أو سلطة ضد سلطة. إنما يقيمه على حسابهم جميعاً. إنه يعطى كل مجتهد جزاءه، وكل محتاج حاجته، ويرسم لكل فرد ولكل جماعة ولكل سلطة حدودها لتحقيق العدالة المطلقة فى النهاية. إن القانون الإسلامى الذى لم يضعه فرد، ولم تضعه طبقة، ولم تضعه سلطة؛ هو القانون المبرأ من الميل فى صف فرد، ومن محاباة طبقة على طبقة، ومن مراعاة سلطة. ومن ثم فهو الحاجز دون طغيان طبقة على طبقة، وهو الوقاية من ذلك الصراع الذى تحسبه المذاهب المادية ضربة لازب، لأنها رأته فى المجتمعات التى تدعى الإسلام - والإسلام منها براء - ضربة لازب كذلك. وهى عرض موضعى لبيئة خاصة، بيئة تغاير فى مقوماتها الأساسية مقومات الحياة فى الإسلام.

والآن فلننظر كيف يحقق الإسلام فكرته الكلية فى السلام الشامل القائم على العدل الكامل فى محيط الحياة.

وجدان الحب والرحمة

يبدأ الإسلام بناء المجتمع فى ضمائر الأفراد ووجدانهم، فهناك فى أعماق الروح يغرس بذرة الحب، وينسم نسمة

الرحمة . . الحب الإنسانى الخالص، والرحمة الإنسانية المبرأة . إنه يرد الناس إلى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة، ويوقظ فى وجدانهم شعور النسب والقربى، ويذكرهم أخوّتهم فى الله وفى المنشإ والمصير . فإذا رقت جوانحهم بهذه المشاعر اللطيفة كانوا إلى السماحة أقرب، وإلى السلام أدنى، وهانت أسباب الخلاف والنزاع، وأمكن أن تفلح النظم والقوانين التى يسنها لتحقيق هذا السلام؛ وكان ذلك الوجدان بمثابة الضمانة الوثيقة للشرائع والتنظيمات، وسارت عجلة الحياة فى يسر ورفق وسماح : ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾ (سورة النساء الآية : ١) .

وهكذا تنتظم البشرية كلها فى نسب واحد، وفى إله واحد، وتختفى المنازع والفوارق، لتبرز تلك الصلة الكبرى الوثيقة العميقة، التى تشمل الناس جميعًا على اختلاف الملل والنحل، والأجناس والألوان واللغات والأقوام .

أما المؤمنون فهم أقرب رحمًا بعضهم إلى بعض بطبيعة الحال، بحكم أخوتهم فى الله، والتقائهم فى العقيدة التى يعدها الإسلام أوثق من روابط الدم، ووشائج النسب : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ (سورة الحجرات الآية : ١٠) . . «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه

عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1] . . أولئك يهتف بهم رسول الله ﷺ : «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[2] وينوط الإيمان فيهم بالحب حتى لا يفرق المرء بين نفسه وأخيه : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3] . ويحرم عليهم الخصومة أكثر من ثلاث ليال يفثئون فيها غضبهم ثم يثوبون إلى المودة والقربى : «لا يحل المسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام»[4] .

والرحمة صنو الحب، والله يصف نفسه بها مراراً وتكراراً؛ ويمن بها على نبيه أن جعلها فى قلبه فكان لينًا عطوفًا : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (سورة آل عمران الآية : ١٥٩) . . ويمن بها على المسلمين أن بعث إليهم هذا الرسول الرحيم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة التوبة الآية : ١٢٨) . . ويجعل القسوة أمارة الكفر والتكذيب بالدين : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ① فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (سورة الماعون الآيات : ١ ـ ٣) .

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) متفق عليه. (٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه الستة إلا النسائى.

والرحمة ليست مطلوبة بالمسلمين وحدهم ولكنها للآدميين جميعًا: «ارحموا أهل الأرض يرحمكم من فى السماء»[1].

لا بل إن الإسلام ليخطو بوجدان الرحمة خطوته الكبرى فيتجاوز بها عالم الإنسان كله إلى عالم الأحياء، فيشيع فى القلب البشرى بشاشة ذلك الوجدان ورقته وانعطافه تجاه كل ذى حياة. يقول الرسول الكريم: «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ بى، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»: قالوا يا رسول الله: وإن لنا فى البهائم أجرًا؟ قال: نعم. فى كل ذات كبد رطبة أجر»[2].

وهى غاية فى استجاشة وجدان الرحمة لا تبلغها إلا العقيدة المؤمنة بالوشائج الكبرى بين الأحياء جميعًا، وبوحدة الخالق ووحدة الخَلق فى هذا الوجود العريض. وهى العقيدة الجديرة بأن تغمر نفس «الإنسان» أرقى هؤلاء الأحياء، وخليفة الله فى أرضه عليها جميعًا.

الأدب النفسى والاجتماعى

ولكى يحقق الإسلام الحب والصفاء فى النفوس والقلوب،

---

(١) أبو داود والترمذى.

(٢) أخرجه الشيخان.

فإنه يأخذ المسلمين بآداب نفسية وآداب اجتماعية تعين على هذه الغاية. وتمنع أن تثور الأحقاد فى النفوس، أو تغمر البغضاء القلوب. وهو يستعين بهذه الآداب الرفيعة قبل أن يستعين بالقانون والتشريع، وإن كان يتخذ من كليهما أداة، لأن السلوك المهذب والأدب الجميل والمعاملة الطيبة كلها تشيع فى جو الحياة الاجتماعية رضا وبشاشة وطمأنينة قد تغنى عن التشريع والقانون.

إنه يكره التنفج على العباد والكبر والخيلاء: ﴿ **ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاس ولا تَمْشِ في الأَرْضِ مرحًا إنَّ اللهَ لا يُحبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فخُورٍ (١٨) واقْصِدْ في مشْيِكَ واغْضُضْ من صوْتكَ إنَّ أنكر الأصْواتِ لصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ (سورة لقمان الآيتان: ١٨، ١٩). . ﴿ **ولا تمْشِ في الأرْضِ مرحًا إنَّكَ لن تخْرِق الأرْض ولن تبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً** ﴾ (سورة الإسراء الآية: ٣٧). . «إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»[١].

والإسلام يلحظ فى هذا طبائع النفوس، فهى تكره المتكبرين، وتبغض المختالين، وتضيق بالمفتخرين المتباهين، وتحمل الغيظ والحنق والتبرم بهؤلاء الناس، ولو لم يقدموا لأحد مساءة شخصية، لأن مجرد تظاهرهم على هذا النحو يثير فى الآخرين كبرياءهم، ويحفزهم إلى الرد عليهم بكرههم والتبرم بهم دون شعور.

---

(١) مسلم وأبو داود.

وإذا كان الإسلام يكره الكبر والخيلاء اللذين قد لا ينالان إنسانًا بذاته بالأذى، فهو يحرم كل ما يمس كرامات الناس وأحاسيسهم ويلمزهم في مشاعرهم أو قيمهم: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الحجرات الآيتان: ١١، ١٢).

والإسلام يلحظ أدق مشاعر النفس، حتى لينهى أن يتناجى اثنان في حضرة ثالث لا يشترك في الحديث: «إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يؤذيه».[١] وهو أدب نفسي عال لطيف.

وفي هذا السبيل كان النهي عن المنّ بالمعروف والصدقة، فالمن خلق خسيس في ذاته، مؤذ لكرامة الآخرين كذلك، ولهذا فهو يمحق الصدقة ويذهب بالمعروف، ويحل النقمة والموجدة محل الشكر والاعتراف: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

(١) رواه الثلاثة وأبو داود.

فمثلُهُ كمثل صفْوانٍ عليْه تُرابٌ فأصابهُ وابلٌ فتركهُ صلْدًا لاَّ يقْدرُون علىٰ شيْءٍ مّمّا كسبُوا واللّهُ لا يهْدي الْقوْم الْكافرين ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٦٤).

ولا يقف الإسلام عند الحدود السلبية فى هذه الآداب، بل يدفع إلى الصورة الإيجابية منها لاستجاشة شعور الود وإحساس الألفة، فهو يدعو إلى إشاعة الكلمة الطيبة بين الناس: ﴿ وقُل لّعبادي يقُولُوا الّتي هي أحْسنُ ﴾ (سورة الإسراء الآية: ٥٣).. ﴿ وقُولُوا للنّاس حُسْنًا ﴾ (سورة البقرة الآية: ٨٣).. ﴿ وإذا حُيّيتُم بتحيّةٍ فحيُّوا بأحْسن منْها أوْ رُدُّوها ﴾ (سورة النساء الآية: ٨٦).. وإلى إفشاء السلام فى كل مكان ولكل إنسان، على معرفة أو على غير معرفة، تأليفًا للقلوب وإشاعة للطمأنينة: «يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير»[1]. وسئل رسول الله ﷺ: أى الإسلام أفضل؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[2]. وإلى مقابلة السيئة بالحسنة: ﴿ ادْفعْ بالّتي هي أحْسنُ فإذا الّذي بيْنك وبيْنهُ عداوةٌ كأنّهُ وليٌّ حميمٌ ﴾ (سورة فصلت الآية: ٣٤).. ﴿ وعبادُ الرّحْمٰن الّذين يمْشُون على الأرْض هوْنًا وإذا خاطبهُمُ الْجاهلُون قالُوا سلامًا ﴾ (سورة الفرقان الآية: ٦٣).

وهو يدعو إلى الصفح عن المساءة وضبط النفس عند الغضب، وجهادها لا لتضطغن وتحقد، ولكن لتعفو وتغفر، وينصرف

(١) البخارى. (٢) البخارى.

ما بها من انفعال ويحل محله البر والسماح: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (سورة الشورى الآية: ٤٣). . ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة التغابن الآية: ١٤). . ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ١٣٤). . ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (سورة الشورى الآية: ٣٧).

وهو يدعو إلى السماحة فى المعاملة بيعًا وشراء واقتضاء: «رحم الله رجلا سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»(١) وإلى الأمانة فى التبادل ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٨٣). وإلى النصح فى التجارة «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»(٢).

وهو ينأى بالمسلمين عن مثيرات الأحقاد ومؤرثات الضغائن، كمجالس القمار حيث ترتفع درجة الأحقاد فى النفوس وتهبط متابعة للكسب الحرام والخسارة الوبيئة، وكمجالس الشراب حيث لا ضابط للنزوات والهفوات من عقل أو إرادة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (سورة المائدة الآية: ٩١).

---

(١) البخارى والترمذى.
(٢) رواه الخمسة.

وهكذا يقوم الأدب النفسى والاجتماعى بدوره فى تصفية جو الحياة، وإشاعة المودة والألفة فى النفوس، ويساعد فى بناء السلام فى المجتمع فى عالم الواقع وعالم الشعور.

شعور التعاون والتضامن

ثم يربط الإسلام الأفراد فى المجتمع بعد ذلك برباط المصلحة المشتركة، ويقوى فى نفوسهم شعور التعاون والتضامن، وشعور الواجب المفروض عليهم جميعًا، لصالحهم جميعًا، ويقيم حدود الحرية الفردية عند المصلحة المشتركة، ويشعر الجميع بأن هناك أهدافًا مشتركة لا ينهض بها الفرد وحده، ولابد من التعاون لبلوغها بين الجميع: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؛ الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته»[1]. . «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[2].

---

(١) رواه الخمسة.

(٢) البخارى والترمذى.

والجماعة مسئولة عن رعاية الضعاف فيها وكفالتهم وحمايتهم فى أنفسهم وفى أموالهم: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ (سورة الضحى الآيتان: ٩، ١٠). . ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (سورة الماعون الآيات: ١ ـ ٣). . ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (سورة النساء الآية: ٦).

وفى الحديث: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث. . وإن أربع فخامس أو سادس»[١]. . «من كان معه فضلُ ظهر فليعُد به على من لا ظهر له؛ ومن كان له فضلُ زاد فليعُد به علىَ من لا زاد له»[٢].

ولتحقيق مبدإ التعاون حرم الربا لما يثيره من الأحقاد فى الجماعة. فليس يحنق النفس أكثر من أن يلجأ المحتاج إلى ذى المال، فينتهز الفرصة السانحة والضرورة المحوجة، ويفرض على أخيه ضريبة حرامًا، وثمنًا للمال يتقاضاه: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٧٥). . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ

---

(١) متفق عليه.

(٢) مسلم وأبو داود.

من الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩).

إن المال ينبغى أن يعطى للمحتاجين قرضًا بلا فائدة، لتشيع فى الجماعة روح المودة والرحمة، وروح التعاون والتضامن: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٨٠) ولتكن السماحة طابع الاقتضاء بلا تعسير على المدين ولا إرهاق. فذلك هو اللائق بجماعة الإنسان!

ولتحقيق ذلك المبدإ كذلك حرم الاحتكار ولعن المحتكرين، فهم نهازون للفرص، يستوفون أرباحهم الفاحشة من دماء المستهلكين فيثيرون حفيظتهم ويشيعون فى الجماعة روح التباغض، ويقتلون بذور التعاون: «من احتكر فهو خاطىء»[1]. . وحرم الغش وتطفيف الكيل والميزان: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (سورة المطففين الآيات: ١-٣). . «من غشنا فليس منا»[2]. . وحرم أن يبخس الناس أشياءهم ويعطوا دون قيمتها التى تستحق، وعد ذلك فسادًا فى الأرض: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (سورة هود الآية: ٨٥).

ثم أمر المسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعًا، فيلتقوا عند

---

(١) مسلم وأبو داود والترمذى.

(٢) مسلم وأبو داود والترمذى.

ذلك المحور، ويأخذوا بتلك العروة، فيشعرهم هذا بوحدتهم في الله، وتعاونهم في سبيله، وتجمعهم في طاعته: ﴿واعْتَصِمُوا بحبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تفرَّقُوا واذْكُرُوا نعْمت اللهِ عليْكُمْ إذْ كُنتُمْ أعْداءً فألَّفَ بيْن قُلُوبكُمْ فأصْبحْتُم بنعْمته إخْوانًا وكُنتُمْ علىٰ شفا حُفْرةٍ مِن النَّارِ فأنقذكُم مِنها﴾ (سورة آل عمران الآية: ١٠٣).
﴿وتعاونُوا على البِرِّ والتَّقْوىٰ ولا تعاونُوا على الإثْمِ والْعُدْوانِ﴾ (سورة المائدة الآية: ٢).

وتلك عقدة العقد، ورابطة الروابط التي يلتقي عليها الجميع، فيحسّون بالوحدة التي تجمعهم، وبالواجب الذي يدفعهم. وما من شك أنها لبنة في بناء السلام الاجتماعي ذات قيمة في البناء.

الأهداف العليا للحياة

بعد ذلك كله - أو قبل ذلك كله - يحقق الإسلام السلام في المجتمع الإسلامي بنقلة ينقلها للفرد، وينقلها للجماعة، من عالم الذات المحدود إلى آفاق أعلى من الذات وأفسح. إن الصراع كثيرًا ما ينشأ من الطاقة المكبوتة التي لا تجد لها متصرفًا، ومن المجال الضيق الذي لا يسمح لهذه الطاقة بالتسامي. ذلك حين تضيق آفاق النفس، وتضمر أهداف الحياة، ويصبح الواقع الفردي الصغير، أو الواقع الطبقي المحدود أو الواقع القومي المغلق هو مجال النشاط، ومجال العمل، ومجال الخيال.

والإسلام يفطن إلى هذا كله، فيخرج الفرد ويخرج الطبقة ويخرج القوم من جحر الغايات الصغيرة القريبة، ليطلقها في مجال الأهداف العليا للحياة الطليقة.. يطلقها من مضيق العمر الفردى القصير إلى فضاء الحياة العامة الكبيرة، ومن مجال النظرة الطبقية أو القومية الضيقة إلى آفاق الإنسانية الرفيعة الشاملة.

عندئذ يحس الفرد أنه لا يعيش لذاته، وإنما يعيش للإنسانية جميعًا. وعندئذ تحس الجماعة أنها لا تحيا لهذا الجيل، وإنما تحيا للبشرية قاطبة. وعندئذ يحس المسلمون أنهم أوصياء في الأرض، خلفاء لله، وأن ذواتهم ليست ملكهم، وجهودهم ليست لهم؛ وحياتهم وسيلة لا غاية. ولا وقت إذن ولا فسحة للصراع الفردى أو الطبقى أو القومى الصغير الضئيل الهزيل، بينما الغايات العليا والأهداف الشاملة تنتظر الجميع.

إن الإسلام يقول للمسلمين: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ (سورة آل عمران الآية: ١١٠).. ويقول لهم: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ** ﴾ (سورة التوبة الآية: ١١١).. ويقول لهم: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾

(سورة آل عمران الآية: ١٠٤). فيرفع هاماتهم وأبصارهم إلى الإصلاح الكونى العام. إلى تحرير البشرية جميعها من العبودية للطواغيت. إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. إلى تحقيق الصلاح الإنسانى الشامل. أما أنفسهم وأما أموالهم، وأما مصالحهم القريبة جميعًا فقد باعوها بيع السماح، بل باعوها بما هو خير وأبقى، فقد اشتراها منهم الله.

إنهم مكلفون أن يجاهدوا فى الله لتصبح كلمة الله هى العليا، ولتصبح الأرض سلامًا لا فتنة فيها. وليصبح الناس عبيداً لله وحده. وفى سبيل هذه الغاية العليا لا قيمة لذوات الأفراد ولا للمصالح والمطامع والشهوات: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٣٩).. «من جاهد لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[١].. «لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل»[٢].

وهم مكلفون حماية الضعفاء ودفع الأذى عنهم ومنحهم الأمان، ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (سورة النساء الآية: ٧٥).

وهم مكلفون أن يغيروا المنكر وقع من حاكم أو من رعية، وقع

(١) رواه الخمسة.
(٢) من كلام الخليفة الأول أبى بكر.

من فرد أو جماعة؛ فهم جند الله فى الأرض، وبهم صلاحها، وعليهم تبعة إزالة الآثام منها: «من رأى منكم منكراً فليغيره»[1]. . وإلا حل بهم الدمار وحق عليهم العذاب: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أو شك أن يعمهم الله تعالى بعقابه»[2]. . «والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدى الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرُنهُ على الحقِّ قصراً، أو ليضربنَّ الله بقلوب بعضكُمْ على بعض»[3].

والإسلام إذ يكلف المسلمين هذه التكاليف العليا يرفع نفوسهم وأهدافهم، ويطلق طاقاتهم الكامنة، فى مجال الإنسانية لا فى مجال الفردية. وما من شك فى أن هذا الانطلاق يشغلهم عن العداوات الصغيرة فى المجتمع، والشحناء التى تثيرها المطامع والمطامح. وإنه ليضع تلك الأهداف العليا فى كفة، ويضع شهواتهم ومطامعهم فى كفة أخرى، فيخيرهم بين الكفتين من أول الأمر: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة التوبة الآية: ٢٤).

إنها تكاليف الوصاية على البشرية التى جعلها الله من نصيب

---

(١) البخارى.

(٢) أبو داود والترمذى.

(٣) أبو داود والترمذى.

هذه الأمة : ﴿ الَّذين إن مَكَّنَاهُمْ في الأرْض أقامُوا الصَّلاة وآتوا الزَّكَاة وأمرُوا بالْمعْرُوف ونهوا عن الْمُنكر ﴾ (سورة الحج الآية : ٤١) . . ﴿ وكذلك جعلْناكُمْ أُمَّةً وسطا لِّتكُونُوا شُهداء على النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عليْكُمْ شهيدًا ﴾ (سورة البقرة الآية : ١٤٣) . وإنها واجب العبادة لله التى تجعل الحياة كلها مشدودة إلى أفق أعلى : ﴿ ومَا خلقْتُ الْجِنَّ والإنس إلاَّ ليعْبُدُون (٥٦) ما أُريدُ منْهُم مِّن رِّزْقٍ ومَا أُريدُ أن يُطْعِمُون ﴾ (سورة الذاريات الآيتان : ٥٦ ، ٥٧) .

وفى جو كهذا الجو يستطيع الفرد أن يحقق ذاته ، ويحقق رغبة الاستعلاء فى نفسه ، دون أن يضطر فى ذلك للنزاع الفردى والشحناء ، وإلى العراك الداخلى والبغضاء . ففى المجال متسع للجميع ، وفى الأرض مندوحة عن صراع الديكة على فتات الحياة!

نظام الحكم

فيما تقدم كنا نتحدث عن الوجدانات والمشاعر التى يقيم عليها الإسلام أسس السلام فى المجتمع ، وهى عوامل لا شك فى قيمتها ، ولا مجال لنكرانها . ولكن الإسلام لا يعتمد عليها وحدها ، ولا يدع لها تنظيم الحياة الاجتماعية فى عمومها . فنظرة الإسلام الكلية تجمع دائمًا بين التكليف والتطوع ، وبين التشريع والتوجيه ، وتأخذ المجتمع بالنظم والقوانين ، كما تأخذه بالترغيب

والتحضيض. وفى مجال السلام الاجتماعى، يأخذ الإسلام بهذه السنة كذلك، فيجعل من نظام الحكم، وضمانات العدالة القضائية، وضمانات الأمن والسلامة، كما يجعل من ضمانات المعاش والتوازن الاجتماعى العام، وسائل لإقرار السلام فى المجتمع عن طريق التشريع والتقنين والإلزام.

ونظام الحكم فى الإسلام كفيل بإقرار العلاقات بين الراعى والرعية على أسس من السلم والعدل والطمأنينة، ينهض عليها بناء السلام الاجتماعى سليمًا راسخ الأركان.

إن الراعى لا يصل إلى مكانه إلا عن طريق واحد: رغبة الرعية المطلقة واختيارها الحر. ولا يستبقى بين الرعية مكانه ذاك إلا عن طريق واحد: طاعة الله والعمل بشريعة الله.

وحكم يقوم على رضا واختيار، وبعد مشورة من الناس وإذن، ولا يحكم إلا بما أنزل الله.. حكم يشيع الثقة والطمأنينة فى النفوس، ويبثُّ الرضا والارتياح فى القلوب، فلا مجال للبرم به، والضيق منه، والتفكير فى الخروج عليه، ما دام ينهض بتبعاته بالطريقة التى رسمها الإسلام، وفى الحدود التى شرعها الإسلام.

فما الطريقة الإسلامية فى الحكم؟ إنها طريقة الشورى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (سورة الشورى الآية: ٣٨).. ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (سورة آل عمران الآية: ١٥٩).. وإذا كانت الشريعة لم تحدد طريقة معينة للشورى، فذلك متروك

لحاجات كل عصر وضروراته وطريقة حياته . ولكن المبدأ مقرر، والطريقة معينة ، ومن شأنها إشراك المسلمين فى تدبير أمورهم، فلا مجال إذن لأن يسخطوا وهم شركاء فى التدبير .

وما الحدود الإسلامية للحكم؟ إنها تنفيذ القانون الإسلامى، الذى شرعه الله لعباده جميعًا ، لم يراع فيه تفضيل فرد على فرد، ولا مصلحة طبقة دون طبقة ، ولا إيثار جماعة على جماعة، ولا تمييز حاكم على محكوم . . كلهم عباد الله ، والشريعة قانون الله، فكلهم أمامها سواء .

وطاعة الناس للحاكم مرهونة بإقامة هذه الشريعة وتنفيذ ذلك القانون، فإذا فسق عنه فقد سقطت طاعته . قال النبى ﷺ : «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى»[1] . فوقّت الطاعة بإقامة كتاب الله دون سواه . والقرآن صريح فى الحكم بالكفر على من لا يحكمون بما أنزل الله : ﴿ **ومن لَمْ يَحْكُم بما أنزل اللهُ فأُولَئكَ هُمُ الكافِرُونَ** ﴾ (سورة المائدة الآية : ٤٤) صريح فى الحكم بعدم إيمان من يريدون أو يقبلون التحاكم إلى غير شريعة الله : ﴿ **ألَمْ تر إلى الَّذين يزْعُمون أَنَّهم آمَنوا بما أُنزلَ إليْكَ وما أُنزل من قَبْلك يُريدُون أن يتحاكمُوا إلى الطَّاغُوت وقَدْ أُمرُوا أن يكْفُرُوا به ويُريدُ الشَّيْطَانُ أن يُضلَّهُمْ ضلالا بعيدًا** ﴾ (سورة النساء الآية : ٦٠) . . ﴿ **فلا وربّك لا يُؤْمنُون حتَىٰ يُحكّمُوكَ فيمَا شَجر بيْنَهُمْ ثُمّ لا يجدُوا في**

---

(١) صحيح البخارى .

أنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (سورة النساء الآية: ٦٥). . والإسلام صريح كذلك فى وجوب مجاهدة من لا يحكم بما أنزل الله، وتحريم طاعة المسلم له على الإطلاق.

وتنفيذ هذا القانون الإلهى الذى لا يحابى أحدًا، ولا يجعل لفرد ولا لطبقة امتيازًا خاصًا، حاكمًا كان هذا الفرد أو محكومًا، وغنية كانت هذه الطبقة أم فقيرة. . كفيل بأن يحقق السلام فى المجتمع، لأنه يسوس الجميع لمصلحة الجميع.

إن محمدًا رسول الله وحاكم المسلمين الأكبر كان يقيد من نفسه كما روى عمر بن الخطاب، وكان يقول لأهل بيته: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئًا، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئًا»[1].

وأبو بكر، الخليفة الأول وصاحب رسول الله ﷺ، يقف عقب انتهاء البيعة له فيقول: «أما بعد - أيها الناس - فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقوّمونى»، إلى أن يقول رضى الله عنه: «أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم». فيقرر القاعدة الإسلامية الكبرى فى الحكم وحدوده.

---

(١) متفق عليه.

هذا النظام الإسلامى كفيل باستقامة الرعاة ورضا الرعية، وبإقرار السلام بينهما وتوطيده. لا بالعسف والجور؛ ولا بالكبت والإجبار، ولا بالقسوة والجبروت، ولا بالخوف والذل، ولكن بالرضا والقبول والطاعة المنبعثة من أعماق الضمير، لا رياء ولا نفاقًا ولا تظاهرًا كذابًا.

إنه وسيلة من وسائل الاستقرار، لا تفضلها وسيلة ولا تعدلها. وهو حلقة من حلقات السلام الشامل، غير منفصلة من السلسلة المتماسكة، فى فكرة الإسلام الكبرى عن الحياة.

ضمانات العدالة القانونية

يستمد الحكم الإسلامى عدالته أول ما يستمد من عدالة القانون ذاته. فهو كما أسلفنا ليس من صنع فرد، ولا من صنع طائفة، حتى تظن به الظنون، ويخشى أن يميل مع الهوى، أو أن يتلبس بالخطإ، فيفوته تحقيق العدالة المطلقة.

فأما عند التنفيذ فقد ناط الإسلام ذلك بوضوح القانون، وبضمير القاضى ورقابة الجماعة. وكل فرد فى الجماعة الإسلامية منوط به هذه الرقابة، منوط به أن يدفع الظلم حين يقع، وأن ينبه الحاكم حين يطغى، والقاضى حين يخطىء. وإنه ليبوء بالإثم حين يكتم الشهادة. أو حين يقر الخطأ، ولا ينبه إليه إذ يراه.

والعدل الذى يتطلبه الإسلام هو العدل المطلق الذى لا يتأثر بالمحبة والشنآن، ولا بالمال والجاه والحكام. وآيات العدل فى القرآن صارمة حازمة حاسمة: ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ (سورة النساء الآية: ١٣٥). . ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (سورة المائدة الآية: ٨). . ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ (سورة الانعام الآية: ١٥٢). . ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾ (سورة المائدة الآية: ٤٢). . ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ (سورة الشورى الآية: ١٥). . ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٨٨).

وفى الحديث: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه

مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر»[1].

وإن تاريخ الإسلام ليحتفظ بأمثلة ونماذج لا تحصى على العدل المطلق الذى حققه الحكم الإسلامى حتى فى الأيام التى انحرف فيها «الخلفاء!» عن تعاليم الإسلام، فقد بقيت ضمائر القضاة ويقظة الجماعة حراساً على العدالة، تستمد سلطانها من خشية الله والخوف من نقمته، إذا تهاونت، أو غشت، أو سكتت على البغى والجور.

وليس المجال هنا مجال الحديث عن العدالة فى الإسلام، فنكتفى بنموذجين اثنين من النماذج الكثيرة التى وعاها التاريخ:

وجد علىٌّ درعه عند رجل نصرانى، فجاء به إلى شُرَيح القاضى، وقال: إنها درعى، ولم أبع ولم أهب. فسأل شريح ذلك النصرانى: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال النصرانى: ما الدرع إلا درعى، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب. فالتفت شريح إلى علىّ يسأله: يا أمير المؤمنين! هل من بينة؟ فضحك علىّ وقال: أصاب شريح مالى بينة!

وكذلك قضى القاضى للنصرانى بالدرع فأخذها ومشى.. إلا أن الرجل لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الدرع درعك يا

(١) أخرجه الترمذى.

أمير المؤمنين اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال عليّ: أما إذ أسلمت فهى لك.

وجلس أبو يوسف للقضاء فاختصم إليه رجل مع الهادى الملك العباسى فى بستان. فرأى أبو يوسف أن الحق مع الرجل، وأن للسلطان مع ذلك شهوده. فقال: إن الخصم يطلب أن يحلف الهادى على أن شهوده صادقون! وهنا نكل الهادى عن اليمين - لما يعتقد فيها من مهانة - فرد أبو يوسف البستان على صاحبه.

وحين يطمئن الأفراد فى المجتمع إلى أن القانون الذى يحاكمون به هو من صنع إلههم العادل. وأن الحاكم الذى يدير أمورهم ليست له حقوق زائدة عن حقوقهم. وأنه مدين بهذا القانون دينونتهم. وأن القاضى الذى يتولى القضاء لا يستمد حكمه من الهوى، ولكن من قانون الله والخوف من الله.. عندئذ تطمئن نفوسهم وتستقر. ويقوم السلام الاجتماعى على أحد أركانه السليمة. ركن الضمانات العادلة فى الحكم والقضاء.

ضمانات الأمن والسلامة

لا يمكن إقرار السلام فى جماعة لا يتوافر فيها الأمن العام، ولا السلامة لجميع الأفراد. ولقد سبق فى الحديث عن «سلام الضمير» أن الإسلام يوفر للفرد ضمانات أمنه وسلامته فى حياته الجماعية، ليصل من هذا إلى بث السلام فى ضميره وتفكيره.

هذا الأمن وهذه السلامة هما ضمانة المجتمع أيضًا. فالفرد

والجماعة فى الإسلام ليسا عدوين وليسا ندَّين. إنما هما خلية واحدة فى صورتين: الفرد فرداً. والفرد مشتركاً فى جماعة. وقد نشأت هذه الصورة من طبيعة الإسلام واستمداد شريعته من الله لا من إنسان. فالفرد لا يشرع للجماعة فى الإسلام والجماعة لا تشرع للفرد. إنما يخضع الفرد وتخضع الجماعة لذلك القانون الإلهى الذى يرعاهم جميعاً.

وحين تتقرر هذه الحقيقة يصبح أمن الفرد الشخصى هو أمن الجماعة الكلى، وأمن الجماعة العام هو أمن الفرد الخاص، بلا تعارض بينهما ولا انقسام.

إن كل فرد سوى ذو مصلحة مباشرة فى توفير الأمن العام للجماعة. فهذا الأمن لا يكبته، ولا يقوم على حسابه، ولا يحاربه فى هدف صالح، ولا فى غاية مشروعة. وإن الجماعة لتؤدى دورها كاملاً حين تضم جوانحها على أفراد كل منهم آمن سالم غانم، فلا مصلحة لها فى كبتهم أو ظلمهم أو غلهم عن النشاط.

فأما الشواذ منحرفو الفطرة، فهم لا يوصفون هذا الوصف لأنهم أخلوا بقانون وضعه فرد لمصلحته، أو وضعته طبقة لفائدتها كما هو الحال فى القانون الأرضى. إنما هم خارجون على الله وأوامره الموضوعة لأصحاب الفطرة السليمة، متناسقة معهم، محققة لمصلحتهم بوصفهم أفراداً وبوصفهم أعضاء فى جماعة. فإذا عوقبوا فهم لا يعاقبون باسم فرد ولا باسم جماعة إنما يعاقبون بقانون الله وباسم الله. فليس عقابهم انتقاماً منهم على يد الجماعة لأنهم خرجوا على مصالح الجماعة التى قررتها لنفسها، بل تحقيقاً

لكلمة الله، وللصلاح العام الذى يريده الله. ومهما قست هذه العقوبة فإن المعنى الانتقامى لا ظل له فيها. فالله تعالى لا يحرص على مصلحة له خاصة وهو يسن التشريع إنما يريد الصلاح العام للعباد، ويريد إزالة أسباب الفساد التى تعوق هذا الصلاح العام بلا رعاية لمصلحة خاصة أو هوى دفين!

وفى ظل هذه الفكرة كانت الضمانات التى فرضها الله للناس جميعًا، وكانت العقوبات التى تحل على المفسدين فى الأرض منهم. بما فسقوا عن أمر الله المؤدى إلى الخير العام.

وأولى هذه الضمانات: ضمانة الحياة: ﴿ **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق** ﴾ (سورة الأنعام الآية: ١٥١).. وكل نفس ككل نفس لها هذا الحق المطلق - إلا بالحق - وقتل نفس واحدة يعدل قتل الناس جميعًا، لأنه اعتداء على حق الحياة فى ذاته، بغض النظر عمن يحمل هذا الحق ويمثله. وشريعة الله الدائمة تتضمن هذا المبدأ فى كل زمان: ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا** ﴾ (سورة المائدة الآية: ٣٢).. ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما** ﴾ (سورة النساء الآية: ٩٣).

والإسلام لا يدع ضمانه مثل هذا الحق الأساسى للضمير وحده، وللتحذير من عقاب الآخرة. فهو قد وضع له الضمانات

القانونية نصًا وتفصيلاً، فقرر القصاص فى حالة العمد، والدية والفدية فى حالات الخطإ، وجعل القصاص معادلاً لما وقع على الحياة من اعتداء. فإن وصل الاعتداء إلى القتل كان الجزاء القتل، وإذا وقف عند الجرح كان القصاص مثله وبحسبه: ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٧٨).. ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٧٩).. ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ (سورة المائدة الآية: ٤٥).. «من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه»[١] ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا ﴾ (سورة الإسراء الآية: ٣٣).. ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئا ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما ﴾ (سورة النساء الآية: ٩٢).

ويلى ضمانة الحياة ضمانة العرض والمال: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله»[٢].

---

(١) رواه الخمسة.

(٢) رواه الستة إلا النسائى.

فأما ضمانة الدم ففيما سبق، وأما ضمانة العرض فقد تضمنتها عقوبات الزنا وعقوبات القذف. ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحد مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة النور الآية: ٢).

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة النور الآية: ٤).

وأما ضمانة المال ـ المال الحلال المكسوب بالطرق التي يقرها الإسلام لا بالغش والربا والاحتكار والسرقة والنهب والسلب وما إليها ـ فقد تضمنها عقوبة السارق في غير اضطرار: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة المائدة الآية: ٣٨).

وتلي ضمانات النفس والعرض والمال.. حرمة المسكن، فلا تقتحم على أحد داره بغير إذنه، ولا يتسور عليه أحد نافذة ولا حائطًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور الآيتان: ٢٧، ٢٨).

ثم ضمانة الحرية الشخصية فلا تفرض عليها رقابة الجاسوسية:

﴿ ولا تجسسوا ﴾ (سورة الحجرات الآية: ١٢) وضمانة الأمن في الغيبة: ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ (سورة الحجرات الآية: ١٢) والكرامة في الحضور: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ (سورة الحجرات الآية: ١١).. ولم يذكر القرآن عقوبات معينة على هذه الاعتداءات، ولكن الشريعة الإسلامية تقرر التعزير. والتعزير عقوبات دون الحدود متروكة للتشريعات الجزئية، وللقاضي بحسب الظروف.

فأما العصابات التي تعيث في الأرض فسادًا بالجملة، وترتكب الجرائم مجتمعة؛ فقد ضمن الإسلام للجماعة المسلمة أن تأمن منها بتقرير عقوبات قاسية عليها، قد لا يستحقها الفرد على جريمة فردية، ولكن خطر الاجتماع على الفساد خاص يتطلب عقوبة خاصة: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ (سورة المائدة الآية: ٣٣).

وبعد فهنالك ضمانات الاتهام - ولها أهمية عظمى في هذا المجال - فيجب أن يأمن الناس الاتهام بالباطل، أو الأخذ

بالشبهات، أو اعتساف الأدلة دون يقين، وفي هذا الصدد يضع الإسلام قواعد محكمة ما أيسر ما يقوم على أساسها تحقيق الجرائم، مع أعلى حد من ضمانة صحة الإجراءات.

والمبدأ الأساسي ألا يؤخذ أحد بالظنة، وأنه لابد من عدالة الشاهد، ووضوح الدليل، وأن الشبهة تدرأ الحد.. وذلك لقوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا ﴾ (سورة الحجرات الآية: ١٢).. ولقوله: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (سورة الحجرات الآية: ٦) ولقوله ﷺ: «ادرءوا الحدود بالشبهات»[1].

وقد رأينا أن الحد في الزنا يستوجب شهادة أربعة عدول، وأن الذي يقذف محصنة ولا يأتي بأربعة شهود يجلد ثمانين جلدة.

أما الاعتراف فيَعُدّه الإسلام حجة ما لم تقم عليه شبهة، فيرجع إلى المبدإ السابق. وقد جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ يطلب الحد على نفسه معترفًا بجريمة الزنا، فلم يقبل النبي اعترافه حتى استوثق منه. فقد رده ثلاث مرات وهو يعود فيعترف، وفي الرابعة سأل الرسول: أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: أشرب خمرًا؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد فيه ريح خمر. فسأله النبي نصًّا: أزنيت؟ قال: نعم[2].. وهنا فقط أقام عليه الحد،

---

(١) في مسند أبي حنيفة للحارثي.

(٢) عن بريدة وقال صاحب مصابيح السنة أنه من الصحاح.

بعد أن لم تبق شبهة فى صحة اعترافه . . ولا يقبل اعتراف ممن وقع عليه إيذاء، فإنه حينئذ لا يكون أمينًا على نفسه!

والاضطرار شبهة تمنع إقامة الحدود، اتباعًا لقوله تعالى: ﴿ فمن اضْطُرَّ غيْرَ بَاغٍ ولَا عادٍ فلا إِثْمَ عليه ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٧٣) . . ولم يطبق عمر بن الخطاب رضى الله عنه حد السرقة فى عام الرمادة بصفة عامة، ولم يطبقه كذلك فى حادثة فردية فى سرقة غلمان لابن حاطب بن أبى بلتعة ناقة، عندما تبين أن سيدهم لا يعطيهم كفايتهم من الطعام، وغرم السيد ضعف ثمن الناقة وأطلق الغلمان السارقين. استنادًا إلى أن الاضطرار عذر. أو إلى إنه شبهة تدرأ الحد.

وهكذا تتوافر الضمانات للفرد والجماعة فى النفس والعرض والمال والحقوق جميعًا. بما فى ذلك ضمان سلامة الإجراءات وصحة الأدلة عند الاتهام.[1] فتكون هذه الضمانات لبنات فى بناء السلام الاجتماعى فى محيط الجماعة. فى ظل ذلك القانون المشـروع للجميـع، لمصلحة الجميع، دون ما غرض ولا هوى ولا محاباة.

ضمانات الحياة المعيشية

يقدر الإسلام قيمة الجانب المعيشى باقتصادياته وضروراته فى

---

(١) ولقد سبق أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يوقع عقوبة على الرجل والمرأة اللذين اطلع عليهما ومعهما زق خمر ـ بعد ما تسور عليهما الجدار ـ لعدم صحة الإجراءات. ص ٥١.

حياة الفرد وحياة الجماعة، ولا يقل تقديره له عن أشد المذاهب المادية اهتمامًا به، ولكنه فقط لا يحبس الإنسان عليه، ولا يغفل جوانبه الأخرى، وأشواقه العليا، وهذا هو مفرق الطريق بين تلك المذاهب وبين الإسلام.

إن الإسلام يعرف الإنسان إنسانًا، فيعرف لضروراته عمقها فى كيانه وأصالتها فى طبيعته، ويعرف بجانبها لأشواقه عمقها فى كيانه وأصالتها فى طبيعته، ومن ثم يحرص على مراعاة أشواقه وضروراته كل منها فى مكانه، وكل منها بعمقه وأصالته، وكذلك تجىء تقديراته للإنسانية أسلم، وتفسيراته للحياة أصدق، واحتياطه لها أوفى، وتلبيته لها أكمل.

ولا يغفل الإسلام عن أن القوانين كلها، والضمانات جميعها يمكن أن تذهب ضياعًا؛ إذا فقد الفرد كفايته الضرورية للمعاش، وأن أشواق روحه قد تطمس، وإشراف ذهنه قد يخبو إذا هو فقد تلك الكفاية. ومن هنا يضع الضمانات بجانب التوجيهات لتوفير هذه الكفاية المعيشية أولاً. ثم لتحقيق التوازن الاجتماعى المطلق أخيرًا.

ونحن الآن بصدد تلك الضمانات المعيشية، فلننظر كيف يوفرها الإسلام ويكفلها.

إن وسيلة الحياة الأولى فى الإسلام هى العمل. والإسلام يمنح العمل قداسة ترفعه وترفع العمال: «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف»[1].

---

(١) من حديث ذكره القرطبى فى التفسير.

«ما أكل أحدكم طعامًا قط خيرًا من عمل يده»[1].

والرسول يدعو إلى توفية العامل أجره قبل أن يجف عرقه، وتوفيته له كاملا. وبعض فقهاء المذهب المالكى يرى أن يكون أجر العامل نصف ربح العمل. وقد عامل النبى أهل خيبر على أساس نصف الغلة.

وعلى أى حال فالإسلام يعد العمل هو وسيلة التملك، ووسيلة ضمان الحياة المعيشية. فإذا عجز الفرد عن العمل لسبب من الأسباب، فعلى بيت المال - أى على الدولة - أن تعوله.

وقد فرض عمر للمولود مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتين، فإذا بلغ زاده، وكان يفرض للقيط مائة ولوليه كل شهر رزقًا يعينه عليه ويجعل رضاعه ونفقته من بيت المال، فإذا كبر سواه بغيره من الأطفال. وكذلك قرر لعجزة اليهود والنصارى فريضة من بيت مال المسلمين بوصفهم أعضاء فى المجتمع عاجزين عن الكسب بسبب الشيخوخة أو العاهة.

فإذا كان العمل لا يسد الحاجة فبيت المال هو الكفيل، كما فى حالة الفقير، وهو الذى يملك أقل من نصاب الزكاة، والمسكين الذى لا يملك شيئًا، وابن السبيل المنقطع عن ماله، والمدين الذى ذهب الدين بماله ما لم يكن قد أنفقه فى معصية. فقد شملتهم مصارف الزكاة التى تجبيها الدولة من المالكين، وتصرفها بمعرفتها على المحتاجين.

---

(١) البخارى.

ولقد أباح الإسلام للفرد أن يقاتل ويقتل من فى يده طعامه أو شرابه إذا منعه عنه وهو فى حاجة ماسة إليه، لأنه كحق الدفاع عن الحياة. وذهب الإمام ابن حزم فى هذا إلى تقدير أن أهل المحلة التى يموت فيها فرد من الجوع قتلة له تؤخذ منهم ديته، بوصفهم هذا، لأن الجماعة ملزمة بكفالة كل فرد فيها، وتوفير الكفاية المعيشية له عن طريق الإلزام لا عن طريق الإحسان.

وهناك التكافل العائلى الذى يفرض للعاجز والمحتاج فى كل أسرة نفقة مفروضة بحكم القانون على أقرب أوليائه إليه، فتصبح الثروة العامة للأسرة كفيلة بكفاية كل فرد فيها تكليفًا والتزامًا لا صدقة وإحسانًا.

وذلك كله غير حق الدولة المسلمة فى أن تفرض من الضرائب ما تشاء، وتأخذ من أموال الأغنياء ما تشاء - دون إخلال بقاعدة الملكية الفردية التى يقوم عليها النظام الاجتماعى فى الإسلام - لسد حاجات الأفراد، أو لتقيم المنشآت والمرافق التى توفر لهم الرزق. إلى غير ذلك من الإجراءات التى سنتحدث عنها بالتفصيل فى موضعها عند الكلام على «التوازن الاجتماعى».

والذى يعنينا هو كفالة النظم الإسلامية للكفاية المعيشية لكل فرد فى الأمة قادرًا على العمل أو عاجزًا عنه، عجزًا كليًا ودائمًا. أم جزئيًا وموقوتًا، وما فى هذه الكفالة من إقرار للسلام فى الجماعة، وحسم للاضطرابات التى تنشئها الجماعة.

أما الاضطرابات التى ينشئها عدم التوازن فى توزيع الثروة

العـامـة، وفى توزيع المغـانم والمغـارم، وفى توزيع الحـقـوق والواجبات فى محيط الجماعة بشكل عام، ففيما يلى عنها بيان :

التوازن الاجتماعى

إن كفالة الرزق لكل فرد، وضمان الكفاية المعيشية للجميع، لا تعدو فى النظام الإسلامى أن تكون خطوة واحدة بدائية فى طريقه إلى تحقيق عدالة اجتماعية شاملة وهى خطوة تقوم على مبدإ إسلامى أساسى : «الرجل وبلاؤه والرجل وحاجته»[1]. هذا المبدأ الذى وزع عمر بن الخطاب الفىء على أساسه فى أيام الإسلام الأولى، والذى ما تزال البشرية تحاوله حتى اليوم، فتخفق لأنها لا تأخذ بشقيه، إنما يأخذ مذهب من مذاهبها بشق، ويأخذ مذهب آخر بالشق الآخر، فلا يجتمع لأيهما ما جمعه الإسلام بطريقته الكلية الشاملة فى علاج الحياة.

على أى فهى خطوة واحدة ـ كما قلت ـ من خطوات الإسلام فى طريقه إلى تحقيق عدالة اجتماعية شاملة، تحقق سلامًا اجتماعيًا شاملاً.

إن التوازن الاجتماعى هو القاعدة الكبرى التى يقيم عليها الإسلام بناء العدالة الاجتماعية، التى ينهض على أساسها السلام الاجتماعى. وكل ما مضى فى هذا الفصل من ضمانات وتأمينات لم يكن إلا مقدمات وأسبابًا لتحقيق ذلك التوازن بصفة شاملة.

---

(١) من كلام عمر بن الخطاب.

هذا التوازن ملحوظ فى نظام الحكم وطريقته، وفى طبيعة التشريع وطرق التقاضى، وفى كفالة الأمن وكفالة الرزق، ولكنه يبلغ ذروته فى الجانب الاقتصادى العام، جانب توزيع الثروة العامة وضوابطه وقيوده فى محيط الجماعة. وهو يبلغ إلى هذه الذروة بوسائل شتى نستعرض منها فى اختصار أهمها وأبرزها، إذ كان هذا الكتاب خاصًا بالسلام العالمى والإسلام، لا بالعدالة الاجتماعية فى الإسلام[1].

يقيم الإسلام هذا التوازن على عدة مبادئ أساسية عامة، يقررها بوصفها أصولا لنظريته فى المال:

المبدأ الأول: مبدأ ألا يكون المال متداولا فى أيدى الأغنياء دون الفقراء. ويقرره بنص صريح: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (سورة الحشر الآية: ٧). تعليلاً لتصرف واقعى من تصرفات الرسول. فيأخذ حكم المبدإ العام. ذلك حينما أعطى فيء بنى النضير كله للمهاجرين الفقراء دون الأنصار الأغنياء - فيما عدا رجلين فقيرين منهم لاشتراكهما فى الوصف مع المهاجرين - كى يعيد التوازن الاقتصادى بين فريقى المسلمين فى ذلك الأوان. مع أن هؤلاء الأنصار كانوا قد آووا المهاجرين وشاركوهم أموالهم ودورهم ومتاعهم، وآخوهم إخاء كاملاً يقوم مقام الإخاء فى الأنساب، بحيث لم يكن هناك ما يفرضه عليهم الإسلام غير ما صنعوا متطوعين من مقاسمة لإخوانهم الفقراء فيما وهبهم الله من كل شىء.

---

(١) يراجع بتوسع فى هذا الموضوع كتاب: «العدالة الاجتماعية فى الإسلام».

كذلك يقرر هذا المبدأ عزيمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو - وإن لم تمهله الطعنة الغادرة لينفذها - قد صرح بها، فلم ينكر عليه أحد من المسلمين، وبذلك تأخذ صفة المبدإ الإسلامى العام: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء». وقد اعتزم أن يستدرك هذا الذى فاته فى العام القابل، مع التسوية المطلقة فى عطاء المسلمين من الفىء.

وبهذا المبدإ توضع القاعدة الأساسية لتوزيع الثروة فى الأمة الإسلامية. ولا يهم أن يكون هذا المبدأ قد عطل فى بعض الفترات، ففى يد الدولة المسلمة - التى تحكم بشريعة الله - أن تنفذه بالطريقة التى تتطلبها الأوضاع الاقتصادية فى كل زمان، والتى يتطلبها السلام الاجتماعى فى كل مكان.

وهذا المبدأ يخصص مبدأ حق الملكية الفردية ويقيده، ويجعله دائمًا خاضعًا لسلطة الدولة المسلمة فى إعادة توزيع الثروة العامة حسب المقتضيات والأحوال. وإن كان لا يهدر الملكية الفردية، ولا يعدل عنها إلى قاعدة أخرى. فقاعدة الملكية الفردية - كما قلنا - هى قاعدة النظام الاجتماعى فى الإسلام.

والمبدأ الثانى: مبدأ «المصالح المرسلة»: أى المصالح العامة التى لم يرد فيها نص خاص، والتى يخول الإسلام للدولة المسلمة، بل يوجب عليها أن ترعاها بحسب المقتضيات والظروف. وقد شرحتها فى كتاب «العدالة الاجتماعية» بتوسع، فأكتفى هنا بالنص على أن للدولة المسلمة التى تحكم

بشريعة الله تطبيقًا لهذا المبدإ، أن توظف فى أموال الأغنياء - كما يقول الإمام مالك - أى أن تأخذ من أصلها - لا من الربح ولا فى صورة ضريبة - ما تقتضيه حاجة الخزانة العامة للإنفاق على مصالح المسلمين العامة، وما تتطلبه وقاية المجتمع ووقاية دار الإسلام من نفقات تعجز عنها الموارد العادية للدولة، ثم لا ترد ما أخذته من رءوس الأموال[1].

وفى هذا المبدإ تقييد كذلك لحق الملكية الفردية وتحديد، يجعله دائمًا خاضعًا لحاجات الجماعة المسلمة. وفى ظله تملك الدولة تحقيق التوازن الاقتصادى، لا عن طريق الضريبة فحسب بل بانتزاع أنصبة من الملكية الفردية - بقدر الضرورة وبحسبها بدون إهدار للقاعدة الأساسية فى النظام الإسلامى - لتنفق فى المصالح العامة للجماعة.

المبدأ الثالث: مبدأ سد الذرائع: و«الذريعة معناها الوسيلة. ومعنى سد الذرائع رفعها، ومؤدى الكلام أن وسيلة المحرم، محرمة؛ ووسيلة الواجب واجبة، فالفاحشة حرام، والنظرة إلى عورة الأجنبية حرام لأنها تؤدى إلى الفاحشة. والجمعة فرض، فالسعى لها فرض، وترك البيع لأجل السعى لها فرض أيضًا. والحج إلى البيت الحرام فرض وسائر مناسك الحج فرض لأجله.. والأصل فى تقدير سد الذرائع هو النظر فى مآلات الأفعال، وما تنتهى فى جملتها إليه. فإن كانت تتجه نحو المصالح

---

(١) يرجع كتاب «مالك» للأستاذ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة بكلية الحقوق جامعة القاهرة - فصل «المصالح المرسلة».

التى هى المقاصد والغايات من معاملات بنى الإنسان بعضهم مع بعض كانت مطلوبة بمقدار يناسب طلب هذه المقاصد، وإن كانت لا تساويها فى الطلب. وإن كانت مآلات تتجه نحو المفاسد، فإنها تكون محرمة بما يتناسب مع تحريم هذه المفاسد»[1].

والذى يهمنا هنا فى مجال التوازن الاجتماعى هو أن عدم التوازن فى توزيع الثروة العامة من شأنه أن يؤدى إلى مفاسد اجتماعية شتى، ليس أقلها تأريث الضغائن والإحن بين الأفراد والجماعات، وقعود الهمم عن الدفاع عند الخطر، إذ لا يجد المحرومون مصلحة لهم فى الدفاع عن وطن يظلمهم ويحرمهم.. إلخ.

فمن واجب الدولة المسلمة التى تحكم بشريعة الله إذن أن تمنع هذه الوسيلة المؤدية حتمًا إلى غايات وبيلة.

وهنا كذلك نجد نفس القيود على حق الملكية الفردية، ونجد فى يد الدولة المسلمة مبدأ بعد مبدأ لتتدخل - فى حدود النظام الإسلامى العام - على النحو الذى يمنع الضرر ويحقق المصلحة، وإلا كانت آثمة مقصرة فى اتخاذ الحيطة.

والمبدأ الرابع: مبدأ تحريم الربا: فالإسلام يقر «الربح» وينكر «الفائدة». ذلك أن الربح قابل للنقص والزيادة وفق الجهد البشرى. أما الفائدة فهى ثابتة حتى ولو لم يأت الجهد البشرى بشىء من الثمرة. فإذا شاء صاحب المال أن يربح، فإما أن يشتغل

(١) كتاب مالك للأستاذ محمد أبو زهرة.

فيه بنفسه فيربح أو يخسر . وإما أن يشارك بماله صاحب الجهد ثم يتقاسمان الربح والخسارة . وهذا هو العدل المطلق .

هذا المبدأ الأساسى فى الإسلام يحول دون تضاعف المال بذاته ، كما يقع الآن فى النظام الرأسمالى ، ويضع قيدًا ضخمًا فى طريق تضخم الثروات على حساب حاجة الأفراد أو الشركات للمال ، واضطرارهم لاستدانته بالربا ، كما يمنع سببًا رئيسيًا من أسباب الاستعمار والحروب الدولية ، ويعطى العمل قيمته فى مجال الإنتاج ، ويحقق العدالة بين الجهد الحقيقى والجزاء ، ويمنع أن ينال القاعدون الكسالى جزاء لا يستحقونه ، وهم ينالونه فى العالم الجاهلى بمجرد توظيف أموالهم فى البنوك وغير البنوك فيضمنون الفائدة الحرام وهم قاعدون ، وتتضاعف ثرواتهم وتتضخم ، وتخل بالتوازن الاقتصادى والاجتماعى على نحو ما هو مشاهد فى ذلك العالم المتعفن .

والمبدأ الخامس : مبدأ تحريم الاحتكار : ويشمل الاحتكار جميع عقود الامتياز . والاحتكار يخلق قوة طاغية فى يد المحتكر ، لا يستمدها من الجودة والاتقان ، وحسن الخدمة وكفايتها ؛ إنما يستمدها من وجود عقد الامتياز فى يده ، أو من احتكاره للسلعة فى السوق . هذه القوة الطاغية تستخدم دائمًا السوق . تستخدم دائمًا ضد مصالح المستهلكين . أى ضد مصلحة الجماعة . لأنها تتخذ من حاجة الناس إلى السلع وإلى المرافق سلاحًا لا يملكون له مقابلاً ، وهى تملك أن ترشو القائمين بالحكم والمراقبين على أعمالها ، وتسترد قيمة هذه الرشا مضاعفة من الجماهير المغلوبة

على أمرها، أو تخفى السلعة المحتكرة فى أشد أوقات الحاجة إليها. وبذلك كله يختل التوازن فى المجتمع، لأن فريقًا قليلاً منه يملك قوة لا مقابل لها فى أيدى الآخرين، ويختل التوازن الاقتصادى لأن الاحتكار وسيلة لتضخيم الثروات بأيسر جهد، وعن طريق حرام، وبوسائل مريبة، وبإفساد الذمم والضمائر والأخلاق.

والمبدأ السادس: مبدأ شيوع الموارد العامة: وهو ما يسمى فى زماننا هذا: «تأميم الموارد العامة» قياسًا على شيوع الماء والكلإ والنار التى نص عليها الحديث بوصفها موارد عامة لا يجوز تحديدها بملكية خاصة، وبوصفها ضروريات للحياة يجب أن تظل مشاعة. وقد رتب الملكية على هذا شيوع الركاز فلا يئول إلى ملكية خاصة، «ويرى المالكية فى أشهر أقوالهم أن ليس شىء من الأنواع الثلاثة: المعادن والفلزات والسوائل فى محالها (مناجمها) من الأموال المباحة حتى يتملكها من وجدها واستولى عليها.. وإنما هى ملك للمسلمين استولوا عليها باستيلائهم على أرضها لأنها منها، وثمرة من ثمراتها، ولكنها مع ذلك لا تعد تابعة لها، فلا تملك بامتلاكها. إذ ليس لمثلها تملك الأرض وتطلب عادة، فبقيت للمسلمين»[1].

وما من شك فى أن رد الملكية العامة فى هذه المرافق للجماعة، فيه قضاء على سبب مهم من أسباب فقدان التوازن الاقتصادى فى

---

(١) كتاب «أحكام المعاملات» للأستاذ على الخفيف الأستاذ بكلية الحقوق جامعة القاهرة.

المجتمع، لأن هذه الموارد العامة تمثل القسم الأكبر - أو قسمًا ضخمًا - من الثروة العامة، تملكه فى الأنظمة الغربية شركات أو أفراد. وتنشأ من هذه الملكية آثار سيئة فى داخل الجماعة، كما أنها تصبح سببًا من أسباب النزاعات الدولية، وألاعيب الاستعمار.

وهنا لابد من إيضاح. فإن الملكية العامة للموارد العامة الشبيهة بالماء والكلإ والنار والمناجم والبترول.. ليس معناها تحويل كل الملكيات إلى ملكية عامة، وتحطيم قاعدة الملكية الفردية التى هى قاعدة النظام الاجتماعى فى الإسلام. فالإسلام يراعى توفير الضمانات لكل فرد أن يكون مالكًا لموارد رزق خاص، يحرره من العبودية للدولة أو للمجتمع. إذ إنه يقيمه حارسًا على شريعة الله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وهو لا يملك حريته إذا كان رزقه فى يد الدولة أو فى يد المجتمع.

والإسلام يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء ليملكوها ملكية فردية تضمن لهم تلك الحرية. ويجعل الناس شركاء فى الموارد العامة، مالكين لها جميعًا، دون أن يجردهم هذا من الملكيات الخاصة، الضرورية لقيام النظام الاجتماعى الإسلامى.

والمبدأ السابع: مبدأ تحريم السرف والترف: والإسلام لا يحب للناس الشظف والحرمان، بل يدعوهم إلى الاستمتاع بالطيبات، ويستنكر تحريمها والصد عنها، ويستنكر السرف والترف، لأنهما ليسا من تلك الطيبات المطلوبة الحلال: ﴿ يا بني آدم خُذُوا زينتكُمْ

عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف الآيتان: ٣١، ٣٢).

والترف منكر فى الإسلام لما يخلفه من انهيار وترهل فى بنية الفرد وفى بنية الأمة، ولما يبثه من فساد وتعفن فى كيان الفرد وفى كيان الجماعة. فالمترفون كانوا على مدار التاريخ هم أسباب انهيار المجتمعات والشعوب: ﴿ وإذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ (سورة الإسراء الآية: ١٦).

والذى يهمنا أن نبرزه هنا هو أن الترف فى أمة لا يقوم إلا على حساب الشظف فى فريق كبير من أبنائها، فمن دماء الجماهير وجهودها ومن ضرورياتها وحاجاتها يستمد هذا النفر المترف لذَّاته وكمالياته، مما يثير أحقاد النفوس وحزازات الصدور، ومما يفقد الجماعة روح السلام والإخاء، ويقيم بعضها حربًا على بعض، لتناقض المصالح، واختلاف المطامح. ذلك كله فضلاً عن القذارة التى يخلِّفها المترفون فى المجتمع، والفضلات الآسنة المتخلفة عن إشباع شهواتهم المريضة.

ولما كان وجود المال فى أيدى هؤلاء المترفين هو الذى يهيئ لهم هذه اللذائذ الدنسة، وتلك الشهوات القذرة، وفى الوقت ذاته يؤجج العداوات والحزازات؛ ويخلخل بناء المجتمع ويهزه من

أساسه، فإن «مبدأ سد الذرائع» يتدخل هنا، ويفرض على الدولة المسلمة أن تنزع الوسيلة الخطرة من أيدى العابثين بالنار. فمبدأ سد الذرائع هو مبدأ الوقاية من الاحتمالات المنتظرة. وهو الذى يحرم الوسيلة إذا كانت تؤدى إلى غاية محرمة، ولو كانت هذه الوسيلة بذاتها غير محرمة. ووجود المال الفائض فى أيدى هؤلاء هو الوسيلة التى يجب منعها اتقاء للعاقبة، كما هو بيِّن فى هذا المجال.

والمبدأ الثامن: مبدأ تحريم الكنز: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (سورة التوبة الآيتان: ٣٤، ٣٥).

ذلك أن حبس المال عن التداول، والكف عن الإنفاق فى سبيل الله، أى فى تلبية الحاجات والمصالح التى تتم بها كلمة الله، من شأنه أن يفسد التوازن المالى والتجارى والاقتصادى عامة، ويفسد معه التوازن الاجتماعى، ويؤدى بذلك الفساد إلى محظورات ومحرمات يجب - تبعًا لمبدإ الذرائع - منعها من الوقوع، ومنع أسبابها التى تؤدى إليها. وحسب هذا التخريج لا تصبح مسألة الكنز مسألة شخصية أو فردية، ولا جريمة ذاتية يترك حسابها إلى الله فى الآخرة يوم تكوى الجباه والجنوب والظهور. إنما تصبح مسألة تشريعية، تطالب الدولة المسلمة بمنعها عن طريق التشريع وعن طريق التنفيذ تحقيقًا للمبدإ الذى أسلفنا.

وشرائع الإسلام ونظمه وحدة متكاملة متناسقة، وكل مبدأ من مبادئه يفضى إلى الآخر، حيث تلتقى كلها عند القاعدة الكلية للإسلام، فلا يجوز عند التشريع أخذ المسائل فرادى مبعثرة، بل ينبغى الرجوع دائمًا إلى القاعدة الكلية الشاملة.

وما من شك فى أن حبس المال عن الإنفاق ذو ضرر واضح بارز واقع. فإن كان هذا الحبس عن بخل وتقتير فهو داخل فى نص النهى فى قوله تعالى: ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾ (سورة الإسراء الآية: ٢٩).. وإن كان عن كراهية للإنفاق فى سبيل الله فهو داخل فى نص النهى فى قوله: ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ (سورة البقرة الآية: ١٩٥).. باعتبار الكف عن الإنفاق فى سبيل الله «تهلكة» للفرد وللجماعة. ومن هنا يدخل مبدأ سد الذرائع من أوسع الأبواب.

وقد احتج بعض المحترفين من رجال الدين ذات يوم بالقول: بأن ما أديت زكاته ليس بكنز، للتدليل على أن حق المال هو الزكاة وحدها؛ وأن لا حرج فى الكنز بعد ذلك. ولكن هناك حديثًا صريحًا يبين حدود الكنز. ويبين فيما يحتفظ بالباقى بعد الزكاة حتى لا يكون كنزًا. ذلك قوله ﷺ: «من جمع دينارًا أو درهمًا أو تبرًا أو فضة. ولا يعده لغريم، ولا ينفقه فى سبيل الله، فهو كنز يكوى به يوم القيامة»[1].

وقد أبان هذا الحديث ما يجوز الاحتفاظ به، والأغراض التى

---

(١) ذكره القرطبى فى التفسير.

يجوز الاحتفاظ به من أجلها، وما عدا هذا فهو كنز ينطبق عليه نص التحريم. وهكذا فليفهم الإسلام على ضوء مبادئه الكلية العامة فى هذا المجال.

والمبدأ التاسع: مبدأ من أين لك هذا: فإن حق الملكية الفردية مع أصالته فى النظام الإسلامى، ليس مطلقًا من كل قيد كما يتصور بعض الجهال بالدين وبعض المحترفين. إن الملكية الفردية لا تقوم إلا على أسباب صحيحة مشروعة. لا تخالف عن مبادئ الإسلام العامة فى المال، ولا عن مبادئه العامة فى الأخلاق كذلك. فهى لا يمكن أن تقوم على النهب والسلب والغصب والسرقة والرشوة والغش أو الربا والاحتكار.. وما إليها. ومن ثم فمن حق الدولة المسلمة التى تطبق شريعة الله دائمًا أن تبحث عن أسباب التملك؛ وترى إن كانت مشروعة أو غير مشروعة. فإن كانت مشروعة فالملكيه مضمونة لصاحبها مقيدة بالقيود التى أسلفنا، وإذا لم تكن صحيحة ولا مشروعة فالإسلام لا يعترف بوجودها من الأساس؛ ولا يرتب لها حقوق الصيانة والمناعة التى يرتبها للملكية القائمة على أصل صحيح.

وهذا هو الإسلام.. يقرر حق الملكية الفردية، ليلبى فى النفس البشرية ميلها الفطرى العميق إلى التملك والاستحواذ، كى تبذل أقصى نشاطها، وتنتج أكبر نتاجها، وتعطى الحياة كل ما أودع الله فيها من الطاقة، فتنمو الحياة ما قدر لها الله النماء. ويقرره كذلك ليضمن لكل فرد مورد رزق مستقل فيحرره من العبودية للدولة أو للمجتمع، ويمكنه من أن يقوم حارسًا على شريعة الله يأمر

بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يخشى بعد ذلك مساسًا برزقه من سلطة من السلطات. ثم بعد ذلك يضع الحدود والقيود لهذا الحق، فلا يؤذى أحد فى خلق ولا فى معاش. ثم يجعل للجماعة فى النهاية حقها فى هذه الملكية الفردية تحقيقًا للمصالح العامة للجماعة.. وبهذا يحقق كل مزايا الملكية الفردية التى تحتج بها المذاهب الفردية، وينفى عنها كل عيوبها التى تحتج بها المذاهب الجماعية، ويقوم وسطًا بين طرفى الغلو، متساوقًا مع الفطرة السوية التى لا عوج فيها ولا شذوذ. كما يقوم حارسًا للفرد أن يفقد كينونته وشخصيته وكرامته وحريته؛ حارسًا للجماعة أن تفقد مصالحها وتناسقها وعدالة التوزيع فيها.

والمبدأ العاشر: مبدأ الزكاة: ذلك المبدأ الذى تحاول أجهزة الرأسمالية الطاغية أن تبرزه وحده بوصفه أقصى ما فرض الإسلام فى المال من مبادئ، كى تغطى على الناس وتخدرهم! والذى تحاول أجهزة الشيوعية حينًا والصليبية حينًا أن تبرزه بهذا الوصف، لتهوّن من شأن الضمانات الاقتصادية والاجتماعية فى الإسلام!

ولقد تعمدت أن أتأخر به إلى موضعه هنا، فى نهاية المبادئ الإسلامية الأساسية، ليعرف الناس كيف تدلس عليهم أجهزة الرأسمالية باستخدام المحترفين من رجال الدين؛ وكيف تدلس عليهم الشيوعية والصليبية - أحيانًا أيضًا - ببعض من ينتسبون إلى الدين!

وما كان ذلك تهوينًا من شأن هذا المبدإ الجليل، ولكن بيانًا للحق المؤيد بالدليل.

إن الزكاة فريضة تأخذ بنظام ثابت ما يعادل ٥ , ٢٪ من أصل الثروة كل عام.

وهنا كلمة يجب أن تقال عن هذه الفريضة التى يشوهها المغرضون والمتحايلون، فيصورونها بصورة الإحسان المذل لكرامة الإنسان!

إن الدولة المسلمة هى التى تجمع هذه الفريضة؛ وإن الدولة المسلمة هى التى تتولى إنفاقها بنظام معين. فأين هى الذلة فى نظام كهذا النظام؟ إن المغرضين والمتحايلين يحاولون دائمًا أن يرسموا صورة واحدة مزورة لعملية الزكاة: غنى يتبرع ويتصدق وفقير يأخذ ويشكر! ويد عليا معطية تحتها يد سفلى آخذة. . وجهًا لوجه، مباشرة بين فرد وفرد!

من أين جاءوا بهذه الصورة الشائهة المزورة؟ لست أدرى!

أئذا فرضت الدولة اليوم ضريبة للتعليم، جعلت حصيلتها خاصة بالأغراض التعليمية البحتة، من بناء للدور أو أداء للأجور، وإنفاق على أدوات الطلاب وكتبهم وغذائهم كذلك. . قيل: إن هذا نظام للتسول والشحاذة، يهين كرامة المعلمين والطلاب، لأن هذه الأموال مأخوذة من أموال الأثرياء منفقة فى شئون الفقراء؟!

أئذا سنت الدولة قانونًا يجبى ٥ , ٢٪ من كل ثروة، كثرت أم

قلت، لتكوين الجيش وتسليحه، وجعلت هذه الضريبة وقفًا على هذا الباب من أبواب النفقات العامة . . قيل: إن الجيش يتسول، وإن كرامته تستذل، لأن الدولة أخذت نفقاته من أموال الأثرياء. والثرى والفقير فى أدائها سواء؟!

إن الزكاة فوق أنها عبادة من العبادات هى فى جانبها المالى ضريبة كبقية الضرائب، تجبيها الدولة، ثم تنفقها فى وجوه معينة. تجبيها كلاً ثم تنفقها أجزاء؛ وليست إحسانًا فرديًا يخرج بعينه من يد ليعطى بعينه إلى يد. وإذا كان بعض الناس اليوم يخرجون زكاة أموالهم، فيوزعونها بأيدهم فذلك ليس النظام الذى فرضه الإسلام؛ إنما يصنع هذا البعض ذلك، ويسلك هذا الطريق المباشر، لأن الدولة لا تقيم أركان الإسلام. ومن ثم فهى لا تجبى هذه الضريبة بيدها، لتنفقها فى إصلاح حال المجتمع كما قرر الإسلام.

ولكن الغفلة والاستغفال يبلغان أن يتحدث بعض الناس عن الزكاة على أنها إحسان فردى يذل النفوس ويعودها الاستجداء!

والجرأة على الحقائق السافرة الأولية إلى درجة التبجح، لا تنشأ إلا من غفلة المستمعين أو القراء إلى حد البلاهة. وكلاهما يتوافر فى البيئة الجاهلية البعيدة عن دين الله. وهو يتوافر أكثر فى بيئة من يسمونهم «المثقفين»! الذين يستمعون لكل طاعن فى نظم الإسلام بترحيب وبشاشة، لكى يثبتوا أنهم مثقفون حقًا! ألسنا فى عصر الأقزام وجيل الأقزام؟!

. . والآن نتتهى إلى الوسيلة الأخيرة التى يسلكها الإسلام لتحقيق السلام فى المجتمع . . تلك هى طبيعة الشريعة الإسلامية وعلاقة النفس البشرية بها، واستجاباتها لها. وهى ذات أثر حاسم فى إقرار السلام الاجتماعى فى النهاية، وتحقيق تلك الضمانات والتأمينات التى سبق الحديث عنها جميعًا.

إنه لابد للجماعة البشرية من قانون ينظم علاقتها، ويصرف أحوالها، ويحيلها كتلة متضامنة ذات كيان، لا أفرادًا متناثرة بغير نظام.

والقانون لا يؤدى دوره هذا بنجاح ما لم يكن مطاعًا نافذًا. ولن يكون نافذًا ولا مطاعًا إلا أن تطمئن إليه النفوس، وتحس بينها وبينه بالتجاوب والتعاطف؛ وتلمس فيه تحقيق مصالحها القريبة وأهدافها البعيدة.

والخروج على القانون ينشأ فى الغالب من عوامل ثلاثة تتجمع إليها العوامل الفرعية كافة:

الأول: هو الشعور بأنه غير عادل، لأنه يحقق مصلحة فرد أو أفراد أو طبقة على حساب الآخرين الذين يحسون فى هذه الحالة أن القانون وسيلة من وسائل تسخيرهم لسواهم، دون فائدة تكافئ جهودهم، وأن عليهم الغرم ولغيرهم الغنم، عن طريق هذا القانون.

الثانى: هو الإحساس بالغربة بين روح القانون وروح الجماعة

التى تحكم به لأنه لا يلبى حاجاتها الشعورية، ومصالحها المادية؛ ولا يماشى أوضاعها، ومقتضيات حياتها، بسبب غربته عن روحها وظروفها وتاريخها.

الثالث: هو محاولة الفرد تحقيق شخصيته بالخروج على القانون الذى وضعه له سواه، سواء كان الذى وضع القانون فردًا أو هيئة أو طبقة، لأن القانون - على أى حال - يتضمن قيودًا، والاستعلاء على هذه القيود - فى حالة القانون الذى يضعه الإنسان للإنسان - يحقق الشخصية الذاتية فى شعور الفرد حين يخرج عليه سرًا أو جهرًا.

وما من قانون من القوانين الوضعية يمكن أن يبرأ من عيب أو أكثر من هذه العيوب، وبخاصة العيبان الأول والثالث، فهما مجتمعان غالبًا فى كل قانون أرضى عرفته البشرية. لا تبرأ منها تلك القوانين التى تشرعها البرلمانات المنتخبة؛ ولا القوانين التى تسنها طبقة العمال الحاكمة فى الدول الشيوعية.

فأما فى حالة البرلمانات المنتخبة، فى الدول الرأسمالية، فحكاية الاختيار الحر من الشعب خرافة. والجماهير تحس فى أعماقها بضخامة هذه الخرافة. لأن الناخب يدرك أنه غير حر فى إبداء إرادته الحقيقية، وعيشه ولقمة الخبز التى تحفظ حياته فى يد صاحب رأس المال الذى ينتخبه! وعلى فرض المستحيل فى استمتاع الناخب بحريته المطلقة وهو يختار الرجال للبرلمان. فهذا البرلمان بحكم تكوينه من طبقة معينة تقل فيه العناصر التى هى من الجماهير حقيقة لا دعاية. ومفروض أن ما يسنه من تشريعات

ملحوظ فيه مصلحة رءوس الأموال، ولا يمكن أن يبرأ من هذا الميل بحال من الأحوال!

وأما في حالة حكم الطبقة العمالية، فمفروض سلفًا أن هدف التشريع كله هو تحطيم «الطبقة البورجوازية». ومهما تكن جموع العمال هي الأغلبية، فهناك فريق آخر ليس التشريع في صفه، بل هو ضده على وجه اليقين، ضده بصراحة وعن عمد وإصرار!

والحال كذلك في كل نظام لا يملك الأفراد فيه لقمة الخبز من مواردهم الخاصة، ويعيشون فيه مهددين أن يفقدوا مورد رزقهم إن هم خالفوا عن إرادة من يملك في يده هذه الأرزاق!

وذلك كله في البلاد التي تستمد تشريعها من واقعها، ولا تستورده من الخارج استيرادًا على نحو ما يقع في بعض البلاد التي تسمى «إسلامية»! أما في حالة الاستيراد والتقليد، فيتم العيب الباقي، وتقع الفجوة بين روح القانون وروح الجماهير، لأنه غريب عليها، لم يستمد من روحها وأوضاعها وحاجاتها. وتقع مضحكات مبكيات في تطبيق القانون المستعار، لو كان للذين يضعونه قسط من البصيرة، وقسط من آدمية التفكير، ما ظلوا يستمدون التشريع من حيث يستمدونه في اطمئنان[1]!

وعلى حين لا تملك القوانين الوضعية جميعها، في قديم الدهر وحديثه أن تبرأ من عيب أو أكثر من تلك العيوب، تقف الشريعة

---

(١) يراجع كتاب «الإسلام وأوضاعنا القانونية» للأستاذ عبد القادر عودة.

الإسلامية وحدها مبرأة من تلك العيوب جميعًا، بلا نظير ولا شبيه.

إنه لا مجال فى الشريعة الإسلامية لشعور فرد أو جماعة بأن القانون ليس عادلاً بالقياس إليها. لأن أسباب الانحراف عن العدل غير قائمة، بحكم أن المشرع للجميع هو إله الجميع، فلا مصلحة له فى محاباة فرد أو جماعة. وبهذا تنمحى من المجتمع الإسلامى فكرة الطبقة. تنمحى بحكم أن ليس هناك قانون يلحظ مصالح طبقة معينة، فيوفرها لها على حساب طبقة أخرى. فكل فرد له حقوق وعليه واجبات متكافئة مع هذه الحقوق. وهكذا يظل المجتمع الإسلامى مجموعة أفراد تتكافأ حقوقهم وواجباتهم فى القانون، لا مجموعة طبقات تتصارع مصالحها وتتصادم، ويقضى القانون لبعضها على بعض، فى هذا الجانب أو ذاك؛ وبناء على ذلك فلا ظل للنظام الطبقى فى الإسلام، وبالتالى لا وجود للصراع الطبقى، حين تنفذ الشريعة الإسلامية كاملة فى عالم الحكم وعالم المال؛ ولا وجود للشعور بانتفاء العدالة القانونية، ومحاولة الخروج على القانون بدافع من هذا الشعور. إنما تبقى الانحرافات الفردية، وهذه ليست بذات بال.

ولا مجال كذلك للغربة بين روح التشريع وروح الأفراد والجماعات. فالشريعة الإسلامية بحكم ما فيها من تناسق شامل، عرضنا منه نماذج كثيرة فيما مضى، تلبى حاجات النفس البشرية فى كل مجال للنشاط الإنسانى. فهى تلبى حاجة الجسد وحاجة الفكر وحاجة الروح، فى شعائرها وشرائعها سواء. وهى تلبى

حاجة الأفراد وهم يعملون فرادى وحاجتهم وهم منتظمون فى الجماعة، فلا تصادم رغباتهم الفطرية السليمة، لا تكبت طاقاتهم الطبيعية القوية. وفى ذات الوقت تضع الحدود للنشاط الشاذ الذى يضير هم أفرادًا وجماعات، وتعطى الجماعة ممثلة فى الدولة كل السلطات التى تنتفع بها لخير الجميع من نشاط الجميع وإنتاجهم، وتكفل بها خير الجميع أيضًا كل نشاط فاحش بجانب الفطرة السوية المستقيمة. وفيما مضى أمثلة فيها الكفاية على هذه الظاهرة المميزة لطبيعة الشريعة الإسلامية.

وأخيرًا فلا مجال كذلك لشعور الفرد بالحاجة إلى التمرد لتحقيق شخصيته والشعور بالاستعلاء تجاه فرد فى المجتمع أو هيئة أو جماعة، إلا أن يكون ذلك الاستعلاء المضحك على الله!

إن شعور الفرد بأن قوة أعلى من قوته ومن قوة البشر جميعًا هى التى تشرع له، لكفيل بأن يشعره بالعزة أكثر مما يشعره بالاستعباد، وبأن يحقق له شخصيته أكثر مما يكبته ويضغطه.. وهى مزية لا تتوافر فى نظام قط إلا النظام الإسلامى، الذى يجعل الجميع سواسية أمام التشريع، لا باللفظ المموه ولكن بالحقيقة الواقعة.

إن الإسلام وحده هو الذى يجعل طاعة الحاكم مستمدة من قيامه على الشريعة التى لم يضعها هو بل وضعها إله البشر جميعًا، وموقوتة بتنفيذ الحاكم لهذه الشريعة وأتباعها، لا بتنفيذ قوانين يبتدعها تخالف عن شريعة الله العليا. فإذا اختلف الحاكم والمحكومون فى حكم أو قضية، فليس الطريق هو الإذعان لإملاء

الحاكم، إنما الطريق أن يرجع الحاكم والمحكوم إلى الله والرسول: ﴿يأيُها الذين آمنوا أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرسُول وأولي الأمرِ منكُمْ فإن تنازعْتُمْ في شيءٍ فردُوهُ إلى اللهِ والرسُول﴾ (سورة النساء الآية: ٥٩).

وذلك منتهى ما يتطلبه الفرد لتحقيق شخصيته، ما دامت فطرته سوية لم تشذ أو تنحرف. ولهذه الكثرة الغالبة يشرع الإسلام. فيحقق فى محيطها الأمن والسلام.

* * *

وكذلك نرى أن جميع المبادئ التى أسلفنا بيانها لتحقيق التوازن الاجتماعى إنما هى مبادئ فى يد «الدولة المسلمة» التى تحكم بشريعة الله كاملة، والتى لا نستمد قوانينها إلا من هذه الشريعة.. والإسلام كل لا يتجزأ، ولا يجتزأ منه بحكم دون حكم، ولا بمبدإ دون مبدإ.. ولا مجال لتجزئته واختيار بعضه وترك بعضه. فهذا ليس الإسلام!

سلام العالم

فى ضوء نظرة الإسلام الكلية للكون والحياة والإنسان التى أجملنا خطوطها الرئيسية فى صدر هذا الكتاب، ثم فى ظل طبيعة السلام فى الإسلام، التى سبق الحديث عنها هناك.. نستطيع أن نتبين خطة الإسلام، فى تحقيق السلام الدولى بين بنى الإنسان.. ولقد سرنا معه فى خطواته إليها من «سلام الضمير»، إلى «سلام البيت»، إلى «سلام المجتمع»، حتى «أسلمتنا هذه الخطوات إلى «سلام العالم»، فى تناسق واطراد.

إن النظرة الكلية للإسلام عن الحياة تهدينا إلى أنه يعد الحياة الإنسانية وحدة. وحدة من ناحية الزمن، متماسكة الحلقات، متدرجة الخطوات، متضامنة الأجيال، متعاقبة الأطوار: ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٨).. ووحدة من ناحية الفطرة، متماسكة النوازع والأشواق، ممتزجة المادة والروح، قابلة للارتفاع إذا حسن توجيهها وتزكيتها، مستعدة للهبوط إذا ساء التوجيه

والقيادة: ﴿ونفسٍ وما سوَّاها (٧) فألْهمها فُجُورها وتقْواها (٨) قدْ أفْلح منْ زكَّاها (٩) وقدْ خاب منْ دسَّاها﴾ (سورة الشمس الآيات: ٧ـ١٠).

وصورة السلام في الإسلام التي تقوم على تلك النظرة الكلية الأولى تهدينا إلى أن الإسلام يعد البشرية كلها بشرية واحدة. ويعد الدين كله دينًا واحدًا، ويعد المؤمنين كلهم أمة واحدة، ويعد الإسلام هو الصورة الأخيرة والنهائية لهذا الدين الواحد، فهو يصدق ما تقدمه؛ ويهيمن عليه لأنه الصورة النهائية له: ﴿وأنزلْنا إليْك الْكتاب بالْحقّ مُصدّقًا لّما بيْن يديْه من الْكتاب ومُهيْمنًا عليْه﴾ (سورة المائدة الآية: ٤٨)

والمسلمون إذن مكلفون تبعات إنسانية تجاه هذه البشرية بحكم وصايتهم هذه عليها ووصاية كتابهم على كتبها. هم مكلفون أن يحققوا في الأرض ذلك السلام الذى أسلفنا خطواته فى الضمير والبيت والمجتمع؛ وعرفنا أسسه ومبادئه من إفراد الله سبحانه بالألوهية وبالربوبية وبالحاكمية؛ ومن العدل والمساواة والحرية، ومن ضمانات الحياة القانونية والمعيشية؛ ومن منع البغى وإزالة الظلم، وتحقيق التوازن الاجتماعى، والتكافل والتعاون، وإزالة أسباب الفرقة والخصام والنزاع بين الأفراد وبين الجماعات، وسد الذرائع التى تدعو إلى قيام الطبقات وتميزها وصراعها. إلى آخر ما سبق بيانه فى الفصول المتقدمة من هذا الكتاب.

وقد جاءت هذه الأمة وسطًا، عادلا بين طرفى التفريط والإفراط فى كل اتجاهات الحياة، كما ترسم لها حدود هذا

الدين ومبادئه التى عرضنا طرفًا منها فى مجال السلام، فكان عليها أن تنهض بهذا العبء، وألا تنكل عنه، لأنه نصيبها المقدر لها فى الحياة من خالق الحياة: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾ (سورة البقرة الآية: ١٤٣).. ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (سورة آل عمران الآية: ١١٠).

الجهاد فى سبيل الله

ولكن هذا الدين - مع هذا كله - لم يعتسف الأمور، ولم يكلف المسلمين إكراه غيرهم على اعتناق عقيدتهم، بسبب أنها الصورة الكاملة الشاملة الصادقة لدين الله الواحد فى الأرض: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٥٦).. إنما كلفهم أولاً حماية المؤمنين حتى لا يفتنوا عن دينهم، وكف القوة عنهم بالقوة. لأن الدعوة بالحسنى هنا لا تجدى، وليس هذا مكانها. وكلفهم ثانيًا كفالة حرية الدعوة، وإزالة كل قوة طاغية فى الأرض تمنع أن تصل دعوة الإسلام إلى الناس كافة.. وكلفهم ثالثًا: إقرار سلطان الله فى الأرض، ودفع المعتدين على هذا السلطان. أولئك الذين يدعون أن لهم حق التشريع للناس من دون الله. فهم يدعون بهذا حق الألوهية ويقيمون من أنفسهم أربابًا مع الله أو من دون الله.. وكلفهم رابعًا إقامة العدالة الكبرى

فى الأرض، وتمتيع البشرية بهذه العدالة فى كل ميادينها، سواء كانت خاصة بالأفراد فى المجتمع، أو بالجماعات فى الأمة، أو بالأمم التى تعيش على هذه الأرض وتتألف منها البشرية الكبرى. وهذا التكليف يقتضى المسلمين أن يكافحوا ربوبية الطواغيت وحاكميتهم، وأن يكافحوا الظلم والبغى حيث كان، ولو كان ظلم الفرد لنفسه، أو ظلم الجماعة لنفسها، أو ظلم الدولة لرعاياها. . فحيثما كان على وجه هذه الأرض ظلم فالأمة المسلمة مكلفة أن تكافحه وتزيل أسبابه، لا لتملك الأرض، وتستذل الرقاب؛ بل لتحقق كلمة الله فى الأرض خالصة من كل غرض، وتفرض ربوبية الله وحاكميته وعدله. وهذا هو ما يطلق عليه فى الإسلام «الجهاد فى سبيل الله» أى الجهاد لتحقيق ربوبية الله للعباد لتكون كلمة الله العليا، لا بإكراه الناس ليكونوا مسلمين، بل بإتاحة الفرصة لهم ليخلصوا من ربوبية الطواغيت، ويملكوا حرية الاختيار دون تدخل من القوة الطاغية الضالة، ويستمتعوا بالعدل المطلق الذى يريده لهم الله: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ** ﴾ (سورة النساء الآية: ٧٦). . وذلك مفرق الطريق بين الجهاد فى سبيل الله والجهاد فى سبيل الشهوات.

ولقد تضمنت مبادئ الإسلام الأساسية ثورة حقيقية كاملة، تعد أكبر ثورة تحررية عرفتها البشرية. ثورة على ربوبية العباد للعباد. وثورة على الظلم بكل صنوفه وأنواعه، وفى كل ميادينه ومجالاته؛ وثورة على النظم والحكومات والأوضاع التى تستند

هذا الظلم وتستبقيه لحساب فرد على جماعة فى صورة حاكم أو مستغل، أو لحساب طبقة على طبقة فى صورة إقطاعيين ورأسماليين وصعاليك! أو لحساب دولة على دولة فى صورة محتلين ومستعمرين.

ولم يكن بد من أن يقاومه أفراد، وان تقاومه طبقات، وأن تقاومه دول. ولم يكن بد كذلك من أن يمضى الإسلام بثورته الكاملة الشاملة فى وجه هذه المقاومة. ولم يكن بد من أن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذه الثورة وتحقيق ربوبية الله وحاكميته فى الأرض. واستنقاذ البشرية أفرادًا وجماعات من جور الأرباب الأرضية الممثلة فى الأشخاص والحكومات والنظم والأوضاع. لكى يقيم السلام العالمى الأكبر على أسسه الأصيلة، لا بين الدول فحسب، ولكن فى داخل هذه الدول كذلك فلا يسكت على وقوع الظلم فى داخل دولة من الدول ليشترى السلم معها بأى ثمن. إن النظرة الإسلامية نظرة ربانية محيطها «العالم» وموضوعها «الإنسان». فليس همه أن يشترى السلم الكاذبة مع دولة من الدول، بأن يدع هذه الدولة تقيم لرعاياها أربابًا من دون الله، يدعون حق الربوبية فيها؛ وتحرمهم العدل القضائى والعدل الاجتماعى. فهؤلاء الرعايا الذين تحكمهم تلك الدولة الظالمة، أيًا كان دينها وأيًا كان شكلها، هم ناس من البشر؛ والأمة المسلمة مكلفة أن ترفع عنهم الظلم، وتمتعهم بالعدل. ومن ثم ينصرف الجهاد إلى تحقيق فكرة الثورة العالمية، لا إلى الحكم والسيطرة والغنم، وبهذه الثورة يحقق السلام بكل صنوفه: سلام الضمير

وسلام البيت وسلام المجتمع ثم . . سلام الإنسانية في النهاية . سلامها في ظلال العدل الشامل الذي يناله الإنسان لمجرد أنه إنسان ، لأنه من حقه كإنسان : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو علىٰ أنفسكم أو الوالدين والأقربين** ﴾ (سورة النساء الآية : ١٣٥) . . ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم علىٰ ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ** ﴾ (سورة المائدة الآية : ٨) .

وهذه الخطوط تصور طبيعة السلام العالمي في الإسلام؛ فليس هو سلامًا بالمعنى الضيق أي تجنب القتال بأي ثمن ، وأيًا كانت الأسس التي يقوم عليها ترك القتال . إن هنالك سلمًا رخيصة دنية ، هي السلم التي تقام على حساب البشرية ، وعلى حساب المبادئ العليا للإنسانية ، كما أرادها الله في الأرض لبني الإنسان ، وهذه هي السلم التي يحذر الله المسلمين منها : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم** ﴾ (سورة محمد الآية : ٣٥) ، الأعلون لأنكم تمثلون الصورة العليا للحياة ، والتي لابد لها من النصر حين يؤمن الناس بها لأنها من كلمة الله : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ (سورة محمد الآية : ٧) . . ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ۝ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ (سورة الحج الآيتان : ٤٠ ، ٤١) .

وإذن فالإسلام في جهاد دائم لا ينقطع أبدًا لتحقيق كلمة الله في الأرض ، أي لتحقيق النظام الصالح الذي يقوم على مبادئه

العليا فى عالم الفرد وعالم الجماعة وعالم البشرية؛ وهو مكلف ألا يهادن قوة من قوى الطاغوت على وجه هذه الأرض، سواء تمثلت هذه القوة فى صورة فرد يتأله على الأفراد والجماعات، أو فى صورة طبقة تستغل الطبقات، أو فى صورة دولة تستغل الدول والشعوب. إنها كلها صورة واحدة فى عرف الإسلام، صورة منافية لمبادئه الأساسية؛ وعليه ان يجاهدها ما استطاع؛ وعليه ألا يهادنها إلا ريثما يتجمع لكفاحها، وعليه بطبيعة الحال ألا يعاونها ولا يقف فى صفها بحال من الأحوال: ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (سورة المائدة الآية: ٢).

إن قوة الإسلام قوة محررة تنطلق فى الأرض لتدك قواعد الظلم والاسترقاق والاستغلال. وهى لا تنظر فى هذا المجال لجنس ولا لون ولا لغة ولا أرض، الناس سواء، كلهم ناس، أما فكرة القومية الضيقة التى اعتنقتها أوربا، والتى انتقلت إلينا عدواها فى حدودها الضيقة الهزيلة السخيفة، فلا يعترف بها الإسلام لأنها تخالف نظريته الكلية عن وحدة البشرية.

حيثما كان ظلم فالإسلام منتدب لرفعه ودفعه. وقع هذا الظلم على المسلمين أو على الذميين - أى الذين أعطاهم الإسلام ذمته ليحميهم - أو على سواهم ممن لا يربطهم بالمسلمين عهد ولا اتفاق. . وأظلم الظلم تعبيد العباد لغير الله وإقامة أرباب يشرعون لهم ما لم يأذن به الله. وحيثما واجه الإسلام الفرد الظالم أو الطبقة الظالمة أو الدولة الظالمة، واجههم على أنهم جماعة من البشر تظلم جماعة من البشر، لا على أنهم سود أو حمر أو صفر

أو بيض. ولا على أنهم مسيحيون أو يهود أو مشركون. واجههم بقدر ما يعطلون من تحقيق كلمة الله فى الأرض، ومن تحقيق السلام الحقيقى لبنى الإنسان. وكان عنيفًا على كل بحسب نصيبه من هذا التعطيل، وبحسب عتوه وضلاله وفساده. . فإذا استسلمت هذه القوة الطاغية أو اهتدت، فالأفراد بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من عقيدة، فى ظل النظام الذى يفرد الله بالألوهية والربوبية فيفرده بالسلطان والطاعة.

والإسلام يواجه القوى الواقفة فى وجهه بواحدة من ثلاث: الإسلام. أو الجزية. أو القتال.

فأما الإسلام فلأنه الصورة الأخيرة لدين الله الخالد، ولأنه الهدى للبشرية جميعًا، ولأنه الناموس الذى يحقق العدالة الإنسانية الشاملة للجميع.

وأما الجزية فلأنها دليل الكف عن المقاومة. وتحقيق حرية الدعوة، وإزالة القوة المادية التى تصد الناس عنها.

وأما القتال فلأنه فى هذه الحالة هو الرد الباقى على مقاومة كلمة الله عن إصرار وعناد، وحرمان البشرية من الاستمتاع بما تحمله لها هذه الكلمة من نور ومن عدل ومن سلام شامل كامل لبنى الإنسان.

فإذا استسلم من يطلب السلام، فهؤلاء هم «الذميون» - أى الذين أعطاهم الإسلام ذمته وعهده لحمايتهم ورعايتهم - وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين بنص الإسلام

الصريح. فأما ما يؤخذ منهم من الجزية، فهو مقابل ما يؤدى المسلمون من الزكاة، مساهمة فى نفقات الدولة التى تحميهم كما تحمى رعاياها المسلمين سواء، والتى توفر لهم العدل المطلق بلا تفرقة ولا تمييز، وتحقق لهم ضماناتهم وتأميناتهم، فى حالة المرض والعجز والشيخوخة. ولم يشأ الإسلام أن يجبرهم على أداء الزكاة، لأن الزكاة عبادة إسلامية خاصة، وحرية الاعتقاد التى يكفلها الإسلام للأفراد تمنعه أن يكره الذميين على أداء عبادة إسلامية. ولم يشأ كذلك أن يجبرهم على الجندية فى الصف المسلم. لأن المسلم إنما يجاهد فى سبيل الله عبادة لله. لهذا يأخذ منهم الضريبة تحت عنوان «الجزية» لا تحت عنوان «الزكاة» مراعاة لهذا المبدإ الإسلامى العام: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

فإذا شاءوا هم برضاهم واختيارهم أن يؤدوا ضريبة الزكاة كالمسلمين بدل الجزية كان لهم ذلك عن رضا واختيار. وقد اختارت قبيلة بنى تغلب على عهد عمر أن تؤدى الزكاة لا الجزية، فأدتها على هذا الأساس[1].

لذلك لا يكون هناك أعجب ولا أخبث من إثارة الشكوك والمخاوف حول الأقليات المسيحية وغير المسيحية فى الأمة الإسلامية إذا حكم الإسلام. إنها دعاية خبيثة مغرضة آثمة يتولاها أحيانًا جماعة من حمقى هذه الأقليات وخبثائها الذين تنغل نفوسهم حنقًا وغلاً للإسلام، لا لشىء إلا لأنه الإسلام.

---

(١) كتاب الدعوة إلى الإسلام تأليف «سير ت. و. أرنولد» وترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه ص ٤٩.

ويتولاها أحيانًا أفراد يحملون أسماء مسلمة، وهم فئات آدمى مهلهل يحاول أن يستند إلى أوكار الدعاية الخبيثة؛ لأنها تملك لهم أغراضًا صغيرة من النفع المادى أو من الشهرة والدعاية لأشخاصهم الهزيلة المدخولة؛ ولأنهم يجدون بذلك عند الصليبيين من المبشرين وبعض المستشرقين صدراً رحبًا، بما يؤدون للصليبية الخارجية من خدمات، لا يؤديها الرجل المسلم ولا الرجل الشريف على أى حال!

روح السماحة الإنسانية

إن فى روح الإسلام من السماحة الإنسانية ما لا يملك منصف أن ينكره أو يراوغ فيه؛ وهى سماحة مبذولة للمجموعة البشرية كلها لا لجنس فيها ولا لأتباع عقيدة معينة، إنما هى للإنسان بوصفه إنسانًا.

وعندما يؤدى الإسلام واجبه فى هداية البشرية وينهض بتكاليفه فى دفع الظلم والفساد عنها، لا تبقى له سلطة تعسفية على فرد أو قوم، ولا تبقى فى صدره إحنة على طبقة أو جنس.

وهى روح تمكن له من إقرار السلام فى الأرض، ومن تأليف الأجناس والألوان، ومن إشاعة السماحة والود والتراحم بين بنى البشر، ومن تنقية جو الحياة من سموم التحاسد الفردى، والتطاحن الطبقى، والتناحر العنصرى، كما تمكنه من كف الحروب والمجازر التى تقوم على تلك الأسباب، وعلى الرغبة فى الفتح والتوسع لمجرد الاستغلال المادى أو العظمة الكاذبة.

وفى مبادئ الإسلام العامة ما يصور هذه الروح الإنسانية الخالصة: ﴿ يَأَيُّها النَّاسُ إِنَّا خلقْنَاكُم مِّن ذكرٍ وأنثىٰ وَجَعلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقبائل لتعارفُوا ﴾ (سورة الحجرات الآية: ١٣). . ﴿ ولا تجادلُوا أَهْلَ الْكتاب إِلاَّ بالَّتي هي أحسنُ إِلاَّ الَّذين ظلمُوا منهُمْ وقُولُوا آمنَّا بالَّذي أُنزل إِلَيْنا وأُنزل إِليكُمْ وإِلهُنا وإِلهُكُمْ واحدٌ ونحْنُ لهُ مُسْلمُون ﴾ (سورة العنكبوت الآية: ٤٦) . . ﴿ قُل للَّذين آمنُوا يغْفرُوا للَّذين لا يرْجُون أيَّام اللَّه ﴾ (سورة الجاثية الآية: ١٤).

وعن جابر بن عبد الله قال: «مرت بنا جنازة فقام النبى وقمنا. فقلنا يا رسول الله: إنها جنازة يهودى. فقال: أو ليست نفسًا؟ إذا رأيت الجنازة فقوموا»[1].

وبهذه السماحة الإنسانية الخالصة سار خلفاء الرسول وسار المسلمون فى الغالب، فلم تند إلا فلتات عابرة من التعصب فى غير واجب دينى، وفى غير ظلم يدفع أو فساد يرفع، وقد وقعت على أيدى أناس لا يعدون ممثلين للإسلام ولا فاهمين لمبادئه العليا وروحه الإنسانية.

رأى عمر شيخًا ضريرًا يسأل على باب، فسأل، فعلم أنه يهودى، فقال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال: «انظر هذا وضرباءه، فوالله

(١) البخارى.

ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم. «إنما الصَّدقاتُ للفُقراء والمساكين». وهذا من مساكين أهل الكتاب».

ولما سافر إلى دمشق مر بأرض قوم مجذمين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت.

ولقد كانت هذه الروح السمحة هى التى اجتذبت الناس إلى الإسلام، ويسرت له أن ينساح فى الأرض بتلك السرعة العجيبة الخارقة، فقد كان الناس يفرون إليه من الاضطهادات الدينية والعنصرية السائدة حينذاك، وهم ينتظرون لديه السماحة والعدالة والمساواة.

جاء فى كتاب «الدعوة إلى الإسلام» تأليف «سير ت. و. أرنولد» وترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه فى ص ٥٣ وما بعدها.

«وقد استطاع ميخائيل الأكبر Michael the Elder بطريق أنطاكية اليعقوبى أن يحبذ فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، ما كتبه إخوانه فى الدين، وأن يرى أصبع الله فى الفتوح العربية حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامى خمسة قرون، وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل:

«وهذا هو السبب فى أن إله الانتقام الذى تفرد بالقوة والجبروت الذى يديل دولة البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضيع، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا

كنائسنا وسلبوا أديارنا فى ممتلكاتهم كافة وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب لتخليصنا على أيديهم من قبضة الروم. وفى الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئًا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا، وإعطائها لأهل خلقيدونية، فقد استمرت هذه الكنائس فى حوزتهم. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتها (وفى ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران) ومع ذلك فلم يكن كسبًا هينًا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام.

«ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن وعسكر أبو عبيدة فى فحل، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون: «يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا. ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا». وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم.

«وهكذا كانت حالة الشعور فى بلاد الشام، إبان الغزوة التى وقعت بين سنتى ٦٣٣، ٦٣٩م، والتى طرد فيها العرب جيش الروم من هذه الولاية تدريجيًا. ولما ضربت دمشق المثل فى عقد الصلح مع العرب سنة ٦٣٧م وأمنت بذلك السلب والنهب، كما ضمنت شروطًا أخرى ملائمة، لم تتوان سائر مدن الشام فى أن

تنسج على منوالها، فأبرمت حمص ومنبج (Hieropolis) وبعض المدن الأخرى معاهدات قد أصبحت بمقتضاها تابعة للعرب. بل سلم بطريق بيت المقدس هذه المدينة بشروط مماثلة. وإن خوف الروم من أن يكرههم الإمبراطور على اتباع مذهبه، قد جعل الوعد الذى قطعه المسلمون على أنفسهم بالحرية الدينية، أحب إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية، وبأى حكومة مسيحية. ولم تكن المخاوف الأولى التى أثارها نزول جيش فاتح فى بلادهم تتبدد حتى أعقبها تحمس قوى لمصلحة العرب الفاتحين.

«أما ولايات الدولة البيزنطية، التى سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية، فقد سمح لهم بأن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرَّض لهم أحد، اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التى فرضت عليهم منعًا لإثارة أى احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة، أو إثارة أى تعصب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية فى مظهر المفاخرة، حتى لا يؤذى ذلك الشعور الإسلامى. ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح - الذى يلفت النظر إليه فى تاريخ القرن السابع - من هذه العهود التى أعطاها العرب لأهالى المدن التى استولوا عليها، وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم فى مقابل الإذعان ودفع الجزية.

«وليس من السهل أن نستخلص تفاصيل هذه العهود الدقيقة مما

أصبح يشوبها من زيادات. وسواء أكانت هذه التفاصيل صحيحة بلفظها أم لم تكن، فهى على جانب من الأهمية، من حيث إنها تمثل الرواية التاريخية، التى أخذ بها المؤرخون المسلمون فى القرن الثانى الهجرى- وهى رواية كان من العسير أن تستقر دعائمها، لو أن هناك دليلاً يقوم على إثبات عكسها- ولا بأس من أن نورد هنا الشروط التى قيل إن الخليفة عمر بن الخطاب قد وضعها حين سلم له بيت المقدس: بسم الله الرحمن الرَّحيم. هذا ما أعطى عبد الله أميـر المؤمنين أهل إيلياء من الأمـان، أعطاهم أمـانًا لأنفسـهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شىء من أموالهم (ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم).

«وفرض عليهم الخراج خمسة دنانير من الموسرين، وأربعة من الطبقة الوسطى، وثلاثة من الفقراء. وقد زار عمر الأماكن المقدسة يصحبه البطريق. وقيل: إنه بينما كان فى كنيسة القيامة، وقد حان وقت الصلاة، طلب البطريق إلى عمر أن يصلى هناك، ولكنه بعد أن فكر اعتذر وهو يقول: إنه إن فعل ذلك فإن أتباعه قد يدعون فيما بعد أنه محل لعبادة المسلمين.

«ومما يتفق مع هذه الروح التى تنطوى على حسن معاملة عمر لرعاياه من أصحاب الديانات الأخرى، ما أثر عن عمر من أنه أمر أن يعطى قوم مجذومون من النصارى من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت. وهو لا ينسى الذميين (وهم أصحاب الديانات

الأخرى الداخلون فى حماية المسلمين) حتى فى أخرى وصاياه إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغى القيام به فى هذا المنصب السامى، فقال: «وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله، أن يوفى لهم بعهدهم، وألا يكلفوا إلا طاقتهم».

وبمثل هذا التسامح، وهذه العدالة، استطاع الإسلام فى الماضى، ويستطيع فى المستقبل، أن يحقق السلام العالمى فى الأرض، لأنه يمنح الناس ما لا تمنحه لهم عقيدة أخرى ولا نظام، ويسلكهم جميعًا فى قافلة إنسانية واحدة، يحسون فى ظلها بالأمن والسلام.

يقول مستر «جب» فى كتابه: «إلى أين يتجه الإسلام» «Whither Islam»:

«ولكن الإسلام ما زال فى قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة، فليس هناك أى هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحًا باهرًا فى تأليف الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة، أساسها المساواة. فالجامعة الإسلامية العظمى فى إفريقية والهند وإندونيسيا، بل تلك الجامعة الصغيرة فى الصين، وتلك الجامعة الضئيلة فى اليابان، لتبين كلها أن الإسلام ما زالت له القدرة التى تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات. فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدَّرس، فلابد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع».

ولقد رأيت فى هذا المجال أن أقتطف من أقوال رجلين أوربيين نصرانيين. لأن شهادتهما للإسلام قديمًا وحديثًا بالسماحة

المطلقة، والعدالة العامة فى معاملة المخالفين له فى العقيدة، شهادة فوق مستوى الشبهات، ولا يمكن أن تكون صادرة عن حماسة دينية للإسلام، ولا عن مبالغة فى كشف مزاياه!

والسماحة الإنسانية، عنصر مهم لإقرار السلام، تفقده كل الحضارات التى تُظل العالم اليوم، هذا العالم الذى تمزقه العصبيات الدينية، والعصبيات العنصرية، والعصبيات المذهبية، ويقف على شفا جرُف هار بسبب تلك العصبيات الذميمة، التى تنقصها روح السماحة الإنسانية، وروح العدالة الحقيقية، والتى تنطلق، وفى إثرها الأحقاد والحزازات، والمطامع الاقتصادية وغير الاقتصادية، فتحيل الحياة البشرية جحيمًا فى الحرب وجحيمًا فى السلم، وتنشر فيه المجاعات والمخاوف؛ وتقف الأمم بعضها من بعض موقف الحذر الدائم والقلق الدائم، وتثقل على أعصاب الناس فتصيبهم بالضغط العصبى والدموى، وتدعهم فى تربص بأنفسهم وسواهم، وفى ذعر لا أمن فيه، وحقد لا سلام فيه، وظلمة لا بصيص فيها. . ومع هذا كله، تجد تلك الحضارات البائسة معجبين ومدافعين. وهى تسوم البشرية شقاء بعد شقاء، وحربًا بعد حرب، وبلاء بعد بلاء. لماذا؟ لأنها تملك تسخير الحديد والنار والكهرباء والبخار، وتملك صنع القنبلة الذرية والقنبلة الأيدروجينية والأقمار الصناعية، ولا تملك ذرة واحدة من ذرات المحبة ولا عنصرًا واحدًا من عناصر السماحة، ولا طاقة واحدة من طاقات الإنسانية!

ألا إنه المسخ الذى يصيب الروح البشرية فى عصر الظلام

الروحى والانتكاس. ومـــا هنالك من بلسم يمس هذه الروح فيشفيها، وما هنالك من شعاع يضيء ظلماتها وخوافيها، إلا أن يقود الإسلام البشرية مرة أخرى، فيردها إلى السماحة الإنسانية، ويحيل كشوفها وعلومها أداة رحمة وحضارة وسلام.

العنصر الأخلاقى فى المعاملات

لعل أبرز ما يميز الروح الإسلامية هو سيطرة العنصر الأخلاقى على العلاقات الدولية فى السلم والحرب سواء، والتجرد من الأنانية الصغيرة المحدودة التى تعبد «الدولة» أو «الوطن» أو «الجنس» أو «الطبقة» وتعدها غاية مقدسة فوق المثل والمبادئ والأخلاق.. هذه الروح التى تسود علاقات الدول والجماعات فى سائر النظم التى عرفتها الأرض - عدا النظام الإسلامى - فتفسد جو الحياة البشرية. وتحيلها كحياة الذئاب فى الغابة، لا عهد فيها ولا ميثاق، ولا مجال فيها لغير الغدر والنفاق.

ولقد شهدت البشرية فى الحقبة التى سيطرت فيها أوربا مُثُلاً من عهود الغابة، وصوراً من شرائع الذئاب. شرائع الغدر والنفاق والخسة. ونقض العهود وخيانة الوعود، وتمزيق الاتفاقيات، ووصف المعاهدات بأنها قصاصات من الورق. كما شهدت من وحشية الحرب ما تخجل الوحوش أن تأتيه. وكان آخر هذه الوحشية السافرة قنبلتا هيروشيما وناجازاكى.

وستشهد البشرية فى مستقبلها القريب من ألوان الخيانة

والغدر، ومن صنوف الوحشية والبربرية ما يتفق مع روح هذه الحضارة المادية الكافرة، التى لا تؤمن بدين ولا خلق، ولا تقيد نفسها بمبدإ ولا ضمير، مما يتمشى مع الفكرة المادية الغليظة التى تسيطر على هذه الحضارة، فتنفى من الحياة كل عنصر غير المصلحة المباشرة والعنصرية اللئيمة.

وستظل فكرة الإنسانية الواحدة، بعيدة عن التحقق فى ظل هذه الحضارة الحقيرة الروح المتعفنة الضمير، مهما نودى فيها بفكرة الوحدة العالمية، لأن هذه الوحدة لابد من أن تقوم على عقيدة أدبية، تكيف الصلات المادية، وتسير الآلات والأجهزة لبناء الحياة لا تحطيم الحياة.

وستظل الأطماع الدولية تتحكم، فتبيح للساسة والقادة كل منكر وكل إجرام وكل وحشية، لأنها موجهة إلى دولة أخرى أو جنس آخر أو طبقة أخرى! وما دامت فكرة قداسة الدولة أو الجنس أو الطبقة - لا قداسة الإنسانية - هى التى تتحكم، فلن يكون هنالك رادع عن ارتكاب أحط الجرائم فى حقوق الآخرين، واعتبار المجرم بطلاً عظيمًا، والغادر سياسيًا بارعًا على نحو ما شهدت البشرية فى تاريخها كله، فيما عدا الفترة التى سيطر فيها الإسلام، فكانت قبسًا من النور فى غياهب الظلام.

إن الإسلام قوة تحريرية - كما أسلفنا - تنطلق فى الأرض لتقرر ربوبية الله وحده للعباد، ومن ثم تحرر البشر من أغلالهم، وتمنحهم الحرية والنور والكرامة. دون نظر إلى عصبية عنصرية أو عصبية طبقية. فإذا اصطدمت هذه القوة بقوى البشر والطغيان

والاستعباد كافحت هذه القوة الشريرة وحدها، مبرأة من كل غاية استعمارية ومن كل غاية اقتصادية. «فقد بعث محمد هاديًا ولم يبعث جابيًا» كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، لعامله الذى أرسل إليه يشكو نقص الجزية لأن الناس آثروا الإسلام!

وحين ينطلق الإسلام ليقوم بواجبه فى التحرير والتطهير لا ينسى أن مصلحة البشرية العليا هى هدفه الأول، لا مصلحة الفاتحين الشخصية، ولا مصلحة المسلمين الخاصة، فلا مجال إذن لفكرة قداسة الدولة أو الجنس التى تبيح المحظور، وتبرر المنكر، وتصف الغدر والنفاق والكذب بالبراعة السياسية، أو تصف القسوة والجريمة والوحشية بالبطولة الحربية.

إن العهد مقدس، مهما يفوّت على المسلمين من مصالح قريبة، ومطامح مرغوبة؛ وإن الشرف مرعى مهما يسبب للمسلمين من خسائر ومتاعب، وإن الشعور الإنسانى ملحوظ، مهما تكن قسوة المعركة، وحرارة الضرب والحرب. وقد كسب الإسلام بذلك كله ولم يخسر فى النهاية. كسب الأرواح والقلوب، وكسب توطيد المبادئ العليا التى جاء لإقرارها فى الأرض؛ وعوض فى النهاية ما فقده بالمحافظة على العنصر الأخلاقى فى السلم والحرب من خسائر جزئية ومتاعب وقتية، وشهد فى فترة قصيرة كيف جاء نصر الله والفتح، وكيف دخل الناس فى دين الله أفواجًا.

لقد جعل الإسلام قانونه فى العالم الدولى، بل العالم

الإنساني، هو الوفاء بالعهد: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (سورة الإسراء الآية: ٣٤). . ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (سورة النحل الآيتان: ٩١، ٩٢).

فهذه الحجة التى تتخذها «الدولة» فى أوربا لتسويغ نقض العهود والمواثيق، حجة مصلحة الدولة، ينص عليها القرآن هنا: ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ وينص على أن هذه الرغبة لا تبرر نقض العهد، وينهى المسلمين عن الاستسلام لها، ويشبه ناقض العهد ذلك التشبيه المزرى ﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾.

وقد عظم الله الوفاء بالعهد والموفين به، بقدر ما حقر الذين ينقضون عهودهم ويخفرون ذمتهم، حتى نبذهم من ساحة الإنسانية وزجهم فى حظيرة الحيوانية: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ (سورة الرعد الآيتان: ١٩ - ٢٠). . ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (سورة الرعد الآية: ٢٥). . ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ

مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴾ (سورة الأنفال الآيتان: ٥٥، ٥٦).

حتى المشركون الذين ناهضوا الإسلام والمسلمين، وآذوهم كما لم يؤذهم أحد من قبل ومن بعد - إلا يوم أن صار الأمر للصليبية فى الأندلس وفى الحبشة، أو للشيوعية فى روسيا ويوغوسلافيا والصين - حتى هؤلاء الذين يقول الله عنهم للمسلمين: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً ﴾ (سورة التوبة الآية: ٨)، حتى هؤلاء يحتم الله على المسلمين أن يفوا لهم بعهودهم، فى الوقت الذى أعلن حكمه الأخير فيهم، وهو أنهم لن ينالوا من الله ورسوله بعد ذلك عهداً ولا ميثاقاً؛ ولكن ما سبق إبرامه فهو مرعى لا يبدأ بنقضه المسلمون: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة التوبة الآية: ٣، ٤).

وحتى المسلمون البعيدون عن دار الإسلام الذين لم يهاجروا إليها حين يستنصرون المسلمين على الأعداء، فإن هذا لا يبيح لإخوانهم نقض العهد الذى سبق له الأداء ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ (سورة

الأنفال الآية: ٧٢) وهي قمة في الوفاء بالعهد تقصر دونها الكلمات.

ولم تكن هذه مثلاً نظرية ومبادئ مثالية، إنما كانت سلوكًا واقعيًا في حياة المسلمين وفي علاقاتهم الدولية جميعًا. والأمثلة على ذلك كثيرة من الواقع التاريخي في الإسلام، نجتزئ منها ببعضها في هذا المقام:

قال حذيفة بن اليمان: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أنني خرجت أنا وأبو الحسيل، فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمدًا. فقلنا ما نريده وما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننطلق إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله فأخبرناه الخبر فقال: «انصرفا. نفي بعدهم ونستعين الله عليهم».

ولقد غدر بعض المشركين بصلح الحديبية، وكان العهد فيه أن من جاء قريشًا من أتباع محمد قبلته، ومن جاء محمدًا من أتباع قريش لم يقبله. فظل النبي متمسكًا بعهده مع الذين لم ينقضوه، ولم يقبل تابعًا قرشيًا جاءه في أثناء قيامه. قال أبو رافع مولى رسول الله: «بعثتني قريش إلى النبي، فلما رأيت النبي وقع في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله لا أرجع إليهم، قال: «إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البرود، ولكن أرجع إليهم، فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع».

وحينما كان سهيل بن عمرو يفاوض النبي في صلح الحديبية- وبينما كان يكتب عهد الهدنة وقبل توقيعه- جاءه أبو جندل بن سهيل يوسف في الأغلال، وقد فرّ من الكفار. فلما رأى سهيل

ابنه قام وأخذ بتلابيبه وقال: يا محمد. لقد لجت القضية بيني وبينك. فقال محمد: صدقت. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فلم يغن عنه ذلك شيئًا، ورده رسول الله وفقًا للشروط التي اتفق عليها، وإن كان بعد لم يوقعها.

وكتب أبو عبيدة رضي الله عنه، وهو قائد الجيش إلى عمر رضي الله عنه وهو الخليفة: «إن عبداً أمَّنَ أهل بلد بالعراق. وسأله رأيه. فكتب إليه عمر: إن الله عظَّم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم».

وأحب أن أقف قليلاً عند هذا الحادث لبيان ظاهرتين ذواتي شأن:

فأما الظاهرة الأولى، فهي تصديق عمر لوعد صدر من عبد مسلم، وأمره لقائده بتنفيذه، فهو من جانب يحقق تلك المساواة المطلقة بين المسلمين، ويمنح الفرد ـ أيًا كان شأنه ـ ذلك الاحترام الوافي. الاحترام لكلمته وعهده بحيث يسري على سائر المسلمين، تصديقًا لقول الرسول: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم»[1]. وهو من جانب تربية للرجال بإبراز التبعة الكبرى الملقاة على كل فرد، فكلمته كلمة الأمة الإسلامية، فعليه إذن أن يتحرج في إطلاقها، ويدقق في إعطائها لأن الأمة كلها مأخوذة بها محاسبة عليها.

---

(١) البخاري.

وأما الظاهرة الثانية، فهى قولة عمر: «فلا تكونون أوفياء حتى تفوا»، وما فيها من معنى بارع يصوّر فكرة الإسلام وطابعه. . إنه لا وجود للكلمة إلا بتحقيق مدلولها فى عالم الواقع، وإلا بالتطابق بين القولة الملفوظة والسلوك المحسوس. . وهكذا كان الإسلام فى كل مبادئه العليا. إنها ليست مُثلاً للوعظ، وليست ألفاظًا للبريق. إنما هى نظم للتنفيذ، وشرائع للتكليف، وواقع من الواقع فى الأرض، وإن كانت مثلاً أعلى من وحى السماء.

ثم يمضى الإسلام فى طريقه العلوى مع الشرف والكرامة والأخلاق فلا يبيح الغدر حتى وهو يخشى خيانة الآخرين. فلابد أن يغالبهم بالعداوة، ويجاهرهم بالحرب، وينبذ إليهم عهدهم فى وضح النهار. ولا يبيتهم بالغدر، وهم منه على أمان: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٥٨).

وقد يقع اللبس عند البعض عند سماع حديث رسول الله ﷺ «الحرب خدعة»[1]. ولكن لا لبس فى الحقيقة؛ فالخدعة فى الحرب تجوز، وهى حرب لا سلم، فحين تعلن الحرب فالمجال هنا هو مجال الخطط الحربية، والعدو يعلم ويأخذ حذره، ويدبر أمره. فالخدعة حينئذ مهارة حربية وبراعة عسكرية فى ميدان الحرب لا فى ميدان السلام.

ولقد كان النبى ﷺ إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها ليباغت

(١) أخرجه أبو داود.

الخصوم الذين أخذوا بجانب الخصومة الصريحة، لا ليغدر بالمعاهدين الآمنين، ويباغتهم من حيث لا يحتسبون.

وهكذا يقف الإسلام القوى موقف الشرف الحازم. فلا غدر ولا ضعف، ولا تعنت ولا استخذاء. إنما هى عزة الأقوياء، وشرف الكرام، وعهد الأوفياء. كذلك تبدو هذه الظاهرة فى تأمين المشرك المستجير؛ لأنه فى هذه الحالة لا قوة له تؤذى، فمن حقه ألا يؤذى؛ لأن الإسلام لا يبغى فناء مخالفيه، إنما يبغى هدايتهم إلى الطريق، وهو لا يعجل إليهم بالأذى وهم فى فترة السماع والبيان: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (سورة التوبة الآية: ٦) فليست هى الإجارة فقط، إنما هى الحماية كذلك حتى يبلغ محله فى أمان.

وإنه لأفق آخر من آفاق السمو لا يبلغه إلا الإسلام.

وكذلك يتضمن القانون الإسلامى الدولى تأمين المبعوثين والمفاوضين وحصانتهم، فلا يمسون بسوء فى ظرف من الظروف.

جاء ابن النواجة وابن آثال رسولا مسيلمة إلى النبى ﷺ فقال لهما: أتشهدان أنى رسول الله؟ قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله! فقال رسول الله - ﷺ - «آمنت بالله ورسوله! لو كنت قائلاً رسولا لقتلتكما».

فأما إن تكن الحرب، فهى إذن حرب التحرير للبشرية. الحرب على عبودية البشر لناس من البشر، وعلى الطغيان والظلم

والشطط، وعلى الخرافات والأوهام والأساطير. حرب التحرير بكل معانيها وفى كل ميادينها. الحرب الخالصة من الهوى ومن الدوافع الاقتصادية والعنصرية والطبقية. الحرب التى يشرّف الإنسانية أن تخوضها لأنها تقرير للصفات الإنسانية وللحقوق الإنسانية وللمبادئ الإنسانية.

إنها ليست الحرب التى تديرها رءوس الأموال المجرمة لتربح من وراء الصناعات الجهنمية، التى تقتات بالأرواح والأجسام، وتبتلع الحضارات والمدنيات، وتحطم النفوس والاخلاق. أو تديرها الشركات الاحتكارية لحماية مصالحها فى البلاد المستعمرة، واستغلال خاماتها من القوى الطبيعية والقوى البشرية؛ وفتح أسواقها للمنتجات والمصنوعات. أو تديرها البيوت المالية الربوية، لتحقيق أرباحها الفاحشة، وضمان المكسب الحرام، واستغلال الفرص، والصيد فى الماء العكر.

إنها ليست الحرب التى تريد لتضرب بسور فولاذى على الشعوب، دون المعرفة والعلم والحضارة كى يبقى أبناء البلاد المحتلة عميًا صمًا بكمًا، يساقون سوق الماشية إلى الذبح فى ذل وفى جهل وفى استسلام.

إنها ليست الحرب التى تخوضها الحضارة الغربية القذرة ضد الإنسانية، جريًا وراء الربح المادى، والاستعباد العنصرى، والتعصب الدينى. كتلك الحروب التى عرفها العالم الغربى فى كل تاريخه الملوث الطويل.

إنما هى الحرب التى تخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. الحرب التى تحمل معها المساواة والعدالة والكرامة لكل كائن بشرى على سطح هذه الأرض؛ وتحققها فى عالم الواقع وعالم المثال.. تحققها فى التشريع وفى التنفيذ.. تحققها للأسود والأبيض. والمسلم والمعاهد. تحققها فى صورة واحدة وبأداة واحدة، وفى مستوى واحد للجميع.

ولقد حرم الإسلام الربا والاحتكار، وحرم الربح الفاحش، وحرم الاستغلال الآثم، وبذلك أبطل أسباب الحروب الاستعمارية المادية الأولى، وقتلها فى مهدها قبل أن تفرخ.

ولقد غلق الإسلام أبواب الحرب كلها فيما عدا بابًا واحدًا: باب الجهاد فى سبيل الله. لتكون كلمة الله هى العليا، وليكون الناس سواء أمام الله.

فإذا كانت الحروب فى هذا الوجه وحده، فهى إذن حرب إنسانية لا يقصد فيها إلى التنكيل والتقتيل والتدمير؛ وما يجوز أن تمس الأبرياء والضعفاء، ولا أن تتجاوز غايتها الأولى من إزالة قوى الشر والظلم، أو إخضاعها لتأمن الإنسانية شرها. وليست هناك من نية للإبادة أو التشفى أو الاستذلال.

روى رباح بن ربيعة: أنه خرج مع رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها، فمر رسول الله وأصحابه على امرأة مقتولة، فوقف عليها ثم قال: «ما كانت هذه لتقتل!» ثم نظر فى وجوه أصحابه وقال

لأحدهم: «الحق بخالد بن الوليد، فلا يقتُلنّ ذرية ولا عسيفًا (أجيرًا) ولا امرأة»[1].

ورفع إليه ﷺ بعد إحدى الوقعات أن صبية قتلوا بين الصفوف، فحزن حزنًا شديدًا. فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين؟ فغضب النبى وقال ما معناه: إن هؤلاء خير منكم. إنهم على الفطرة. أو لستم أبناء المشركين؟ فإياكم وقتل الأولاد. إياكم وقتل الأولاد.

وروى مالك عن أبى بكر الصّديق رضى الله عنه أنه قال: «ستجدون قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، ولا تقتلن امرأة ولا صبيًا ولا كبيرًا هرمًا».

وقال فى وصية له لجُنده: «ولا تقطعنَّ شجرًا، ولا تخربنَّ عامرًا».

وقال زيد بن وهب: أتانا كتابُ عمر رضى الله عنه وفيه: «لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا، واتقوا الله فى الفلاحين».

ومن وصاياه: «لا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات».

---

(١) روى ابن عمر رضى الله عنهما وأخرجه الستة إلا النسائى قال: «وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء، وروى بريدة والصبيان». قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيرًا. ثم قال له: اغزوا باسم الله فى سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا». أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى.

ولم تكن هذه تعاليم نظرية تذوب عند الواقع وتتوارى . . إنما كانت سلوكًا عمليا فى الحروب الإسلامية قديمًا وحديثًا ، لم يشذ عنها إلا النادر الذى لا يقاس عليه ، ولا يبطل القاعدة التى جعلها الإسلام غايته وحققها فى واقعه .

فإذا نحن ألقينا من هذه القمة الشامخة التى يقف عليها الإسلام فى سلمه وحربه ، نظرة على المستنقع الآسن الذى تلغ فيه الحضارة الغربية سلمًا وحربًا ، أدركنا بُعْد الشقة بين نظام ينزله الله للبشر ، ونظام يضعه الناس للناس . وأدركنا كم خسرت البشرية يوم تنكرت لنظام الله . وهى تتعثر فى تكبر مضحك وفى تعالم مضحك ، تريد أن تقول : إنها تريد لنفسها خيرًا مما أراد الله ، وإنها تملك لنفسها خيرًا مما أعطاها الله !

وستظل هذه البشرية تطلع فى طريق كلها منحدرات وآكام ؛ وتلغ فى كل مستنقع آسن من صنع الحضارة الكافرة المغرورة الضالة عن الله . . إلا أن يتسلم الإسلام الزمام ، فيقود البشرية الحائرة إلى مثابة العدل والنظام والسلام .

الفهرس

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٩٢٣٨
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1279 - 4

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)



في ظلال القرآن
العدالة الاجتماعية في الإسلام
خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
النقد الأدبي أصوله ومناهجه
كتب وشخصيات
الإسلام ومشكلات الحضارة
التصوير الفني في القرآن
مشاهد القيامة في القرآن
معركتنا مع اليهود
تفسير سورة الشورى
تفسير آيات الربا
دراسات إسلامية
السلام العالمي والإسلام
معركة الإسلام والرأسمالية
في التاريخ فكرة ومنهاج
معالم في الطريق
هذا الدين
المستقبل لهذا الدين
نحو مجتمع إسلامي



